

مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي

قسم التاريخ - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية - جامعة القصيم

خيّم الغموض رديحاً من الزمن على تاريخ مكة رغم مكانتها السامقة في النفوس، بعد تراجع واضح من المؤرخين - سواء كانوا من أبنائها أو غيرهم - عن الكتابة فيه؛ فلا نرى من يُعنى بتتبع مناشط الحياة العامة في مكة ويُدوّن تاريخها بدقة وتوسع بعد وفاة مؤرخيها البارزين، مثل: أبي الوليد الأزرق (ت حوالي سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٣م)، وأبي إسحاق الفاكهي (ت بعد سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م)، حتى قيّض الله تعالى لها تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م)، ونجم الدين بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)، وابنه عز الدين (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)، وحفيده جار الله (ت ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م)، وغيرهم ممن شمروا عن ساعد الجد محاولين أن يتداركوا ما أهمل من التاريخ المكي، ويلموا شعته بما صنّفوه من كتب، حاولت - رغم عدم توافر المادة العلمية الكافية للفترة التي أعقبت الأزرق والفاكهي - أن تغطي بمضامينها المختلفة جوانب هذا التاريخ المتعددة.

وجاءت بعض كتب الرحلات لتتيح - بما جاء فيها من مادة علمية متنوعة - رافداً يسّر للباحثين الوصول لبعض الحقائق التاريخية والمعلومات الحضارية المهمة، وكانت خير معين في رفع الستار،

وكشف الغموض عن أجزاء مبهمة أو غير واضحة من تاريخ مكة في فترته الغامضة.

ويأتي كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي صنفه محمد بن أحمد المقدسي - بعد رحلة أمضاها سائحاً في الأمصار الإسلامية إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومتردداً خلال ذلك على مكة حاجاً ومجاوراً - من أبرز الكتب التي صنفت في هذا المجال بعد أن حرص المقدسي على أن يُخرج هذا الكتاب وفق خطة مرسومة تخضع لمعايير منهجية واضحة وصارمة. ولا غرو فقد أرضى المقدسي طموحه وتطلعاته حتى أصبح مصنّفه، بمنهجه المتميز، ومادته العلمية الثرة والمتنوعة التي بزّ بها سابقيه ومعاصريه من الجغرافيين والرحالة، مرجعاً للكثير من الباحثين، ومثار إعجاب عدد من الكتاب المحدثين، سواء كانوا من العرب أو المستشرقين، ممن أفاضوا في دراسة منهجه، والإفصاح عن مكانته وقيّمته العلمية^(١).

بيد أن هذا التميز الذي حظي به كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي قد دفعنا لإعمال النظر في محتوياته، والغوص في مظانه، لمعرفة ما حفل به من معلومات تاريخية وحضارية تسلط الضوء على الحياة العامة في مكة إبان القرن الرابع الهجري، وتسد - في الوقت عينه - جزءاً من ذلك النقص الواضح الذي أشرنا إليه في تاريخها. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن ما ألفيناه - بعد البحث والتقصي - من معلومات متنوعة عن مكة في هذا الكتاب قد أفسحت المجال للوصول إلى معرفة الكثير من الجوانب التاريخية والحضارية؛ مما نخال أنه سيغطي - بإذن الله - جانباً من النقص الذي لازم التاريخ المكي آنذاك، لا سيما وأن المقدسي قد بسط القول في موضوعات حضارية صرفة ونادرة عن كل إقليم تحدث عنه، ومن ذلك مكة، في وقت أغفلت كتب التاريخ - في الغالب - هذه المعلومات، وتناولت جزئيات عامة منها

(١) هذا ما سوف نتحدث عنه بتوسع في المحور الأول من هذه الدراسة.

بعض المصادر المعنية بالنظم والحضارة. فضلاً عن ذلك فإن معظم ما جاء به المقدسي من معلومات قد بُني على المعاينة المباشرة، واتكأ عليها، فجمع بذلك بين الدقة والمعاصرة.

ومما يحسب لهذا الكتاب أيضاً أن مؤلفه جاء إلى مكة في فترة هدوء نسبي أتى بعد مرحلة انتقالية خضعت المنطقة في نهايتها لسيطرة الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر بعد نزاع حاد مع العباسيين. كما شهدت هذه الحقبة التاريخية أيضاً تحركاً ملموساً للنشاط التجاري في البحر الأحمر وموانئه، عقب زيادة الانفتاح العبيدي على العالم الخارجي. ولهذا وذاك فلا مشاحة أن المقدسي قد أمدا بمعلومات غاية في الأهمية عن هذه التغيرات السياسية والحضارية التي تخللت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

لقد أملت علينا الاعتبارات السابقة برمتها تسليط الضوء على ما جاء من معلومات مختلفة عن مكة في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي^(٢)، وجمعها في قالب واحد، ثم صياغتها بعد إخضاعها للتمحيص والتحقيق والتحليل والتفسير العلمي المتجرد، وكشف المبهم، وتفسير الغامض، كل ذلك بعد التزود بالأدوات المختلفة التي تساعد على التعايش مع الأحداث المحيطة، وإدراك المتغيرات الزمانية والمكانية المختلفة.

ووفق ما أملته المادة العلمية المتاحة، واقتضته طبيعة الدراسة، فقد تم تناول الموضوع - والذي جاء تحت عنوان، "مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" عبر محورين، جاء المحور الأول منهما - بعد هذه المقدمة - ليلقي الضوء على شخصية المقدسي وكتابه

(٢) سوف نستند في هذا البحث على كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي حققه الدكتور محمد مخزوم، ونشرته دار إحياء التراث العربي ببيروت، عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

أحسن التقاسيم؛ فشمّل بذلك حياة المقدسي ومكانته ومنهجه في تأليف كتابه ومصادره، ثم أهمية هذا الكتاب ومكانته. أما المحور الثاني - وهو مرتكز الدراسة - فكان عن مكة كما وصفها المقدسي، وفيه أميط اللثام عن الجوانب المختلفة التي وصفها المقدسي في مكة، فضم هذا المحور؛ الموقع والمناخ، ثم مكانة مكة وأهميتها، ثم تخطيطها وعمارتها، وتبع ذلك الحديث عن وصف المقدسي للكعبة والحجر الأسود والحجر (حجر إسماعيل) والمطاف وعمارة المسجد الحرام وذكر أبوابه، ثم وصفه لقبه زمزم وقبة الشراب ومقام إبراهيم والمسعى. وعقب ذلك تناولنا ما ذكر المقدسي عن المصادر المائتة المختلفة في مكة، ثم ما أتى به من معلومات عن النشاط التجاري، سواء عن الأسواق أو البضائع والسلع أو الاستثمار العقاري أو المكايل والموازين أو العملات المتداولة أو المكوس والضرائب. وجاء بعد ذلك الحديث عمّا أتحفنا به من معلومات عن الحالة الاجتماعية بجوانبها المختلفة في مكة. ثم ما ذكر عن الجوانب الفكرية والعلمية فيها. وأوردنا بعدها معلوماته عن المشاعر المقدسة؛ وهي منى والمزدلفة وعرفة، ثم أتينا بأقواله حول حدود الحرم المكي، وأجملنا بعد ذلك - وتحت عنوان معلومات أخرى - جوانب متفرقة لا يجمعها رابط واحد، أشار إليها المقدسي في حديثه عن مكة. ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة، وفيها حاولنا تتبع أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأخيراً، أسأل المولى - جل شأنه - أن يكون التوفيق حليفي فيما ذهبت إليه، كما أمل أن أكون قد قدمت بهذا العمل جديداً يخدم تاريخنا المجيد، والحمد لله أولاً وآخراً.

أولاً: المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١ - حياته ومكانته^(٣)

هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، وعُرف بالبشاري أيضاً^(٤)، كما أطلقت عليه ألقاب أخرى كثيرة^(٥). ولد في مدينة بيت المقدس سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م^(٦)، وقيل

(٣) سوف أكتفي في هذا الجانب بتناول بعض المعلومات المختصرة عن حياة المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم، حيث كفيت مؤنة ذلك من قبل عدد من الباحثين الذين تناولوا المقدسي وكتابه بحدوث مبسوط؛ سواء كان ذلك بدراسات مفردة، أو ضمن كتابات شاملة تختص بالجغرافيين والرحالة المسلمين وتراثهم. ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن الرجوع - على سبيل المثال - للكتب والأبحاث الآتية: عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري: حياته - منهجه. ط١، النجف: مطبعة النعمان ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية العربية في القرون الوسطى "المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". بيروت: دار الشروق، (د.ت)؛ فلاح شاكر أسود، المقدسي (ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي) ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨م؛ غازي طليمات، من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لمحمد بن أحمد المقدسي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٠م؛ عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه أحسن التقاسيم، مجلة المؤرخ العربي (القاهرة)، م١، ٧ع، ١٩٩٩م، ص٢٠٣-٢٧٤؛ ناصر عبدالرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية - دار الوفاء ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص١٧٢-٢٠٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر ودار بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج٤، ص٤٦٤؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٦، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، لبنان: مكتبة المشى، ودار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، ج٨، ص٢٣٨. وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح: "لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لي من معاجم اللغة، ومصادر الأنساب". (المرجع السابق، ص٢٤٥).

(٥) ذكر أنه سمي خلال تجوله ورحلاته بأسماء عدة، فقال: "ولقد سميت بستة وثلاثين اسماً دعيت وخطبت بها، مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقرئ وفقهه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتأدب وكري ومتفقه ومتعلم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حلتها وكثرة المواضع التي دخلتها". (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق، محمد مخزوم، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، ص٤٩-٥٠).

(٦) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٣؛ ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ص١٧٢.

سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م^(٧). أما وفاته فقد اختلف فيها على أقوال عدة؛ فقليل: إنها كانت سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م^(٨)، وقيل: في حوالي سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م^(٩)، وقيل: خلال سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م، أو بعدها بقليل^(١٠).

وعاش المقدسي صباه في كنف أسرة تميزت بالثراء المادي وحب العلم، وعُرف خلال حياته بالتقوى والورع والزهد^(١١). وفي شبابه انتقل إلى مدينة بغداد، ودرس على بعض العلماء فيها^(١٢). ورغم أنه اطلع على الكثير من العلوم ودرسها، إلا أنه - وبعد طول نظر - آثر التعمق في الفقه على المذهب الحنفي^(١٣). كما مارس المقدسي مهناً عدة، كان من أبرزها التجارة التي حذق فيها كثيراً^(١٤).

وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م بعد أن بلغ سن العشرين، كما حج مرة أخرى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م^(١٥)، إضافة إلى ذلك فقد جاور في مكة^(١٦)، واستفاد من بعض العلماء فيها^(١٧). وقد أمضى حوالي عشرين سنة من عمره يتجول في البلدان الإسلامية، قبل أن يؤلف كتابه سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م^(١٨).

(٧) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٨.

(٨) عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٨.

(٩) الزركلي، المرجع السابق، ص٣١٢؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي،

ترجمة، أحمد عثمان هاشم، ط٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م،

ص٢٢٩؛ عدي مخلص، المرجع السابق، ص٢٥؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية

العربية، ص١٧.

(١٠) غازي طليمات، المرجع السابق، ص٣٦.

(١١) عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص٢٠٥، ٢٠٨.

(١٢) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٤.

(١٣) ناصر عبدالرزاق المواقي، الرحلة عند العرب، ص١٧٣.

(١٤) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٩.

(١٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص٥٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٧٧، ٧٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

وقد أمدنا أبو عبدالله المقدسي بمعلومات عن نفسه، غطت إغفال معظم المصادر الحديث عنه، ويسرت لنا - في الوقت نفسه - الوقوف على جوانب من حياته الشخصية وأطوارها المختلفة، فضلاً عن مكانته العلمية والاجتماعية؛ فأفاد من خلال ذلك بأنه تولى - خلال تجواله في البلدان الإسلامية - العديد من المناصب الإدارية والدينية، ومارس مختلف المهن، كما عانى من الكثير من الشدائد والمحن^(١٩).

(١٩) يقول المقدسي موضعاً ما عاناه خلال أسفاره: "ثم أنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقّهت، وتأديت، وتزهدت، وتعبدت، وفقهت، وأديت، وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائب، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتمت في الصحاري، وصدقت في الورع زماناً، وأكلت الحرام عياناً، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حيناً السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزبيل، وأشرفت مراراً على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفساق، وبعث البضائع في الأسواق، وسجنت في الحبوس، وأخذت على أي جاسوس، وعابنت حرب الروم في الشواني، وضرب النواقيس في الليالي، وجلدت المصاحف بالكرى، واشترت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت في السمائم والثلوج، ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة، وحججت، وجاورت، وغزوت، وربطت، وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسويق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وجميز عسقلان السبيل، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لي بالصلوات، وعريت، وافتقرت مرات، وكاتبني السادات، ووبخني الأشراف، وعرضت علي الأوقاف، وخضعت للأخلاف، ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع، وأقامني الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت في الوصايا، وجعلت وكيلاً، وامتنحت الطرارين، ورأيت دول العيارين، واتبعني الأزدلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفؤارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه ومثل هذا كثير. (أحسن التقاسيم، ص ٥٠-٥١). وقال غازي طليمات عن شخصيته: "إنها متعددة الجوانب، مشحونة الملكات، صقلتها الأسفار، وراضتها التجارب، لكنها ظلت أبية قوية، لا تخشع ولا تتواضع". (من أحسن التقاسيم، ص ٣٨).

٢ - كتاب أحسن التقاسيم: منهجه، ومصادره، ومكانته، وأهميته

كان الاطلاع على كتب الجغرافية، والتعمق في دراستها مما استهوى المقدسي خلال طلبه للعلم، فأعمل النظر في مؤلفات السابقين في هذا المجال، وأحس بأن هناك نقصاً قد لازم ما طرقوه من موضوعات، وخللاً في ما قدموا من مادة علمية في كتبهم، ولا سيما وأن بعضهم لم يعتمد على المشاهدة الفعلية فيما دونه. وبعد طول تأمل في هذه المصنفات قرر المقدسي تأليف كتاب شامل يصف فيه البلدان الإسلامية، ويعتمد بالدرجة الأولى على السماع المباشر والمعانية، ليسد ما رآه من نقص، ويقيم ما وجده من خلل في المصنفات السابقة. ولهذا الهدف قضى المقدسي من عمره عشرين سنة تقريباً، تنقل فيها بين الأقاليم الإسلامية، واحتك خلالها بأجناس متنوعة، وفئات مختلفة، وطبقات متفاوتة، كما استعان بذوي العلم والخبرة، فضلاً عن النظر في كثير من الخرائط ودور الكتب في الأمصار التي زارها^(٢٠). كل ذلك لكي يصل إلى معلومات شاملة ودقيقة، تحقق مبتغاه وهدفه، وتروي نهم من تطلعوا للوصول لحقائق ومعلومات وافية عن الأقاليم الإسلامية؛ سواء منهم من شجعوه على إصدار ما جمع من معلومات^(٢١) أو غيرهم ممن أولعوا بطلب العلم، في عصر بلغ فيه التقدم العلمي ذروته، وهو القرن الرابع الهجري. وكان نتيجة ذلك أن أتحنفا المقدسي بكتابه الذي أطلق عليه اسم "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، الذي لم يخرج له للناس إلا في سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م^(٢٢)، بعد أن بلغ الأربعين من العمر، وأقر مادته العلمية جمع من الأئمة والعلماء بعد أن استشارهم في إصداره^(٢٣).

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦-١٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٢) ويرى كراتشكوفسكي أن المقدسي قدم نسخة الكتاب الأولى في سنة ٣٧٥هـ /

٩٨٥م إلى آل سامان حكام المشرق آنذاك، كما قدم منه نسخة ثانية إلى الفاطميين

في مصر سنة ٣٧٨هـ. (تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٢٨-٢٢٩).

(٢٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣.

وقد اقتصر المقدسي في أحسن التقاسيم على الحديث عن الأقاليم الإسلامية دون غيرها^(٢٤). كما حرص على أن يغطي بكتابه معظم الجوانب الجغرافية والحضارية المتعلقة بهذه البلدان، فقال موضحاً منهجه وما تطرق إليه في هذا الكتاب^(٢٥): "فأريت أن أقصد علماء قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكره إلا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والأبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياهم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفايزات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال والحواوير والسماق والسمن منها والرقاق ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجذب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود والمصادر والجروم والمخاليق والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم والمباحس والمشاجر والمناسك والمشاعر".

وقسم المقدسي كتابه قسمين، تضمن القسم الأول منه مقدمة سلط من خلالها الضوء على سبب تأليف كتابه وأهدافه وموضوعه وفوائده وأهميته والجهد الذي بذل فيه. كما تحدث في القسم نفسه وتحت عنوان "مقدمات وفصول لا بد منها" عن أسس منهجه ومصادر كتابه، وما أخذه على السابقين في هذا المجال. ثم أعقب ذلك بحديث

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٥-١٦. ولكي لا يطول بنا الحديث فلن أتطرق لتعريف بعض الكلمات التي أوردها المقدسي هنا، ومن أراد معرفتها فليرجع للكتاب نفسه، حيث اجتهد المحقق في تعريف كثير من الألفاظ الغامضة.

شامل عن البحار والأنهار في البلدان الإسلامية. كما أشار ضمن هذه المقدمات إلى اتفاقات الأسامي وتباين مواقعها، وإلى المواضيع المختلف فيها، وتحدث أيضاً عن خصائص الأقاليم الإسلامية، والمذاهب والديانات المنتشرة فيها. ثم شرح معاناته والمشاق التي واجهها في سبيل جمع مادة كتابه العلمية. ثم عقد باباً خصصه للفقهاء، استعرض فيه باختصار الأقاليم الإسلامية التي سيتحدث عنها في كتابه، وتقسيماتها، وما يتبعها من كور وأمصار وغيرها.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تكلم فيه المقدسي عن الأقاليم الإسلامية، بعد أن قسمه إلى جزئين، خصص الجزء الأول منهما للحديث عن ستة أقاليم عربية، ابتدأها بإقليم جزيرة العرب، والآخر عن ثمانية من الأقاليم الأعجمية^(٢٦).

وقد قسم المقدسي الحديث عن كل إقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة في أحجامها، ومقدار المادة العلمية فيها، وجاءت محتويات هذه الأقسام الثلاثة وفق ما ذكر عدي مخلص على النحو الآتي^(٢٧):

"القسم الأول يتناول الجغرافية الإقليمية، فيتحدث عن أقسام الإقليم ومدنه. وفي الثاني يتناول الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، فيبحث في المناخ والزراعة والطوائف السائدة واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن والأخلاق والتبعية السياسية للقطر وخراجه. في حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات".

(٢٦) ذكر المقدسي الأقاليم الإسلامية، فقال: "فالأقاليم أربعة عشر، ستة عربية؛ جزيرة العرب، ثم العراق، ثم أقور، ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب، وثمانية أعجمية؛ المشرق، ثم الديلم، ثم الرحاب، ثم الجبال ثم خوزستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم السند. ولا بد لكل إقليم من كورة، ثم لكل كورة من قسبة، ثم لكل قسبة من مدن، إلا الجزيرة والمشرق والمغرب فإن لكل واحد مصرين، والمصر قسبة كورته، وليس كل قسبة مصرًا. (أحسن التقاسيم، ص٥٤).

(٢٧) المقدسي البشاري، ص٦٨.

وكان المقدسي قد ضمّن كتابه خريطة ملونة بيّن فيها حدود الأقاليم وخطوطها، ورسم فيها - وبألوان مختلفة - البحار والأنهار والطرق والرمال والجبال^(٢٨). ولكن هذه الخريطة المهمة لم تصل إلينا^(٢٩).

أما مصادر المقدسي التي اعتمد عليها في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب، فقال شارحاً لها^(٣٠): "فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره". كما قال أيضاً^(٣١): "وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتهما، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم، حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب".

يقول إبراهيم خوري مبيناً ما بذله المقدسي في سبيل تحصيل مادة أحسن التقاسيم العلمية^(٣٢): "لا شك أن البشاري بذل جهوداً حثيثة في سبيل الوصول إلى الوثائق المكتوبة أو الحصول عليها. ولا ريب أنه أرق مادياً ومعنوياً وجسدياً في تجواله في أقاليم مملكة الإسلام؛ ليراها عياناً، وفي سعيه للاجتماع بـ"الثقات من الرجال"، وسؤال ذوي العقول من الناس؛ ليسمع منهم الأخبار الصحيحة، ودام نشاطه على هذا المنوال تسعة عشر عاماً استطاع في نهايتها أن ينجز كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

(٢٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٣.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. نقله إلى العربية، محمد عبدالهادي أبو ريذة. ط ١، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص ٦.

(٣٠) أحسن التقاسيم، ص ٤٩.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٣٢) المقدسي البشاري، ص ٢٦-٢٧.

وتتجلى أهمية كتاب المقدسي في تسليط الضوء على الكثير من المواضيع والجوانب التي لم تحظ إلا باهتمام محدود ممن سبقه في هذا المضمار، خصوصاً ما يتعلق بجوانب الحضارة المختلفة، ومظاهر الحياة في البلدان، التي وصفها لنا كما وجدها عند زيارته لها. ولذا فقد أدرك الكثير من الكتاب أهمية كتاب المقدسي وقيّمته العلمية، فقال إبراهيم خوري مستعرضاً آراء بعض المستشرقين في كتاب أحسن التقاسيم ومبدياً رأيه فيه^(٣٣): "وقد كشف سبرنجر أول مخطوطة لأحسن التقاسيم، فاعتبر المقدسي أكبر جغرافيّ عرفته البشرية قاطبة. وعدّ كرامرز كتابه أفضل مصنّفات الأدب الجغرافي العربي. وذكر غلد ميستر أن البشاري يتميز بوفرة مشاهداته وسعة اطلاعه. ورأى ألد مييلي أن ابن حوقل والمقدسي أبرز جغرافيّ القرن الرابع الهجري. وقال كراتشكوفسكي: إن المقدسي جغرافيّ عظيم، وكتاب عربي كبير. وأكد أندريه ميكيل أن إسهام المقدسي في الجغرافية يتمثل، لا في أصالة بحثه، بل في مهارته بعرض الجغرافية البشرية الموروثة عن السلف لا سيما عن الاصطخري وابن حوقل. أما نحن فيبدو لنا أن أحسن التقاسيم أول مصنّف جغرافي عربي يتضمن كثيراً من أفكار الجغرافيا الحديثة دون تقنياتهما".

وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح^(٣٤): إن المقدسي "نجح في أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية، فقدم للباحثين المعاصرين في مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة، تسد كثيراً من الثغرات الموجودة في كتب التاريخ الأصيلة، ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب".

أما عدي مخلص فقال عن المقدسي وكتابه^(٣٥): "إننا لا يمكن أن نتجاهل ما قدمه لنا من المعلومات القيمة عن التجارة وطرق

(٣٣) المقدسي البشاري، ص ٤٦.

(٣٤) المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص ٢٤٣.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٥٤.

المواصلات والمعادن، وغيرها من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأمور الإدارية، تلك المعلومات التي لا يستهان بها في الكشف عن تاريخ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من الناحية الحضارية". وعن قيمة كتاب المقدسي التاريخية أيضاً قال عدي مخلص^(٣٦): "أما أهمية المقدسي من الناحية التاريخية فتتجلى بما أفادنا به من المعلومات القيمة عن الأحوال الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان التي زارها...، وتتجلى أهميته التاريخية أيضاً بتحريره الحقائق، وبهذا كان من الناحية التاريخية أميناً في نقل المعلومات التي يمكن الركون إليها. كما أن المقدسي أدرك نقطة حساسة من الناحية التاريخية، وهي تطور الأحوال بتطور الزمن وتقدمه".

ثانياً: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

الموقع والمناخ

اهتدى المقدسي بعد طول نظر وتأمل في الكون إلى انقسام الأرض إلى سبعة أقاليم فقط^(٣٧)، وجعل موقع مكة الجغرافي ضمن نطاق الإقليم الثاني^(٣٨). كما ألمح إلى تضاريس مكة فبيّن أنها تقع في

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٣١٥.

(٣٧) خالف المقدسي - على حدّ قوله - من سبقوه في هذا الموضوع، حيث جعلوا الأقاليم أربعة عشر إقليمياً. (أحسن التقاسيم، ص ٦٦).

(٣٨) المصدر السابق، ص ٦٧. وقال المقدسي في تحديد هذا الإقليم: "الإقليم الثاني أوله حيث يكون الظلُّ إذا استوى الليل والنهار عند الظهيرة قديمين وثلاثة أخماس قدم، والذي بين طرفيه ثلاثمئة وخمسون ميلاً قاصداً، ووقع وسطه قرب يثرب، وأقصى جنوبيه وراء مكة، والآخر من قبل الشمال عند الثعلبية فمكة، والثعلبية بين إقليمين، ووقع في هذا الإقليم من المدن: مكة ويثرب والريذة وفيد والثعلبية وأسوان مصر إلى حد النوبة والمنصورة واليمامة وطائفة من بلاد السند والهند، وكل ما كان على خط هذه البلدان شرقاً وغرباً فهو داخل فيه. (أحسن التقاسيم، ص ٦٧-٦٨).

شعب واد، وشبه تضاريسها بعمّان الشام، واصطخر بفارس، والحمراء بخراسان^(٣٩). كما ذكر محاذاة جبلي قعيقعان وأبي قبيس لبعضهما البعض، وكأنه يشير دون تصريح بوقوع مكة بينهما^(٤٠).

وسلط المقدسي الضوء على مناخ مكة، فقال^(٤١): "حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفأ وأراحهم من كلف الاصطلاء". وقال عنه أيضاً^(٤٢): "والليل بمكة في الصيف رطب... ويكون بالحرم حرّ عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة". أما مناخ إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة، فقال عنه^(٤٣): "وهو إقليم شديد الحر، إلا السروات؛ فإن هواءها معتدل". وقال عنه وهو يتحدث عن خصائص الأقاليم^(٤٤): "وأشدها حرّاً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب".

مكانة مكة وأهميتها

قسم المقدسي البلدان الإسلامية التي خصص كتابه للحديث عنها - كما أشرنا سابقاً - إلى أربعة عشر إقليماً، وجعل الجزيرة العربية - التي قدمها على جميع الأقاليم الإسلامية في حديثه^(٤٥) - إقليماً

(٣٩) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٤٥) قال المقدسي معللاً سبب بدايته بالجزيرة العربية: "إنما بدأنا بجزيرة العرب؛

لأن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الإسلام. وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون. وبها عُقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين. وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر. ثم هي عشرية قد ذكرها الأئمة في دواوينهم، ولا بدّ للمدرسين من معرفتها في شروحيهم، ولأن منها دحيت الأرض، ودعا إبراهيم عليه السلام الخلق". (المصدر السابق، ص ٧٣).

واحدًا، تضم مصرين^(٤٦) هما: مكة وزبيد^(٤٧)، وعدّ هذين المصريين من أبرز سبعة عشر مصرًا إسلامياً^(٤٨). كما بيّن المقدسي من خلال حديثه عن الحجاز أن مكة هي عاصمته وأكبر مدينة فيه، فقال^(٤٩): "فأما الحجاز فقصبته مكة..."، وقال في موضع آخر، وهو يتحدث عن بلاد الحجاز أيضاً^(٥٠): "مكة، هي مصر هذا الإقليم". وقد كشف لنا المقدسي من خلال معلوماته السابقة المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومدى ما وصلت إليه حدودها الإدارية التي شملت جميع مدن بلاد الحجاز وقراه، التي عدّها المقدسي - حسب تقسيمه ومنهجه - مجرد نواح لمكة وتوابع لها. ومن هذا المنطلق فإننا لا نستبعد أن الدولة العبيدية (الفاطمية) - التي امتد حكمها إلى بلاد الحجاز منذ سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م^(٥١)،

(٤٦) قال المقدسي في توضيح منهجه في تقسيم العالم الإسلامي آنذاك: "واعلم أنا جعلنا الأمصار كالمملك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجال. وقد اختلف في الأمصار، فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود، ويحله أمير، ويقوم بنفخته، ويجمع رستاقيه، مثل: عثر، ونابلس، وروزن. وعند أهل اللغة المصر كل ما حجز بين جهتين، مثل: البصرة، والرقعة، وأرجان. والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل، مثل: الري، والموصل، والرملة. وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقُدّت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الإقليم، مثل: دمشق، والقيروان، وشيراز. وربما كان للمصر أو القصبه نواح لها مدن، مثل: طخارستان بلخ، والبطائح لواسط، والزاب لأفريقية". (أحسن التقاسيم، ص ٥٤).

(٤٧) أما بقية المدن في إقليم الجزيرة فقد عدّها قصبات ونواحي ومدناً وقرى، كما سنذكر.

(٤٨) أحسن التقاسيم، ص ٥٤-٥٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٥١) استغل أشرف الحجاز امتداد النفوذ العبيدي إلى مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م؛ لإعلان تبعيتهم وولائهم لهم، في ظل مضايقة العباسيين، وكتبهم لأي محاولة علوية للظفر بحكم الحجاز. فقام بنو الحسن بالاستقلال بمكة، وبنو الحسين في المدينة، ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في بلاد الحجاز. وكان أمير مكة خلال الفترة التي جاء فيها المقدسي إلى مكة - عقب قيام حكم الأشرف - عيسى بن جعفر بن محمد الموسوي الحسن بن علي الذي خلف والده =

ودخلت في صراع مع الدولة العباسية عليه - قد منحت شريف مكة آنذاك حكم الحجاز بصفة عامة، خصوصاً بعد أن نجح حكامها في السيطرة التامة على الحجاز منذ سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م^(٥٢)، بعد أن وجدوا ميلاً وولاءً من الأشراف خاصة وأهل الحجاز عامة، وهو ما رآه المقدسي خلال مجيئه لمكة، وأكدّه في كتابه^(٥٣). ومن جانب آخر فإن في ذكر المقدسي لتوابع مكة الإدارية دليلاً على توسع نطاق إمارتها، وبالتالي ازدياد نفوذ حاكمها، حيث أدرج ضمن توابع مكة مجموعة من المدن والمناطق البعيدة عنها جغرافياً التي لم تكن - في الوقت ذاته - ضمن نطاقها الإداري سابقاً^(٥٤). إن هذا وذاك يدفعنا إلى القول بأن معظم أشراف مكة كانوا أكثر ولاءً وانقياداً للعبديين من أشراف المدينة، فنالوا بذلك ثقتهم، وتفضيلهم على غيرهم في المنطقة.

= على السلطة. لمزيد من المعلومات، انظر: الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام. تحقيق، د. عمر عبدالسلام تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٥١-٣٥٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الوري بأخبار أم القرى. تحقيق، فهيم محمد شلتوت، ط١، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٠٦-٤١٦؛ أحمد بن عمر الزيلعي، مكة وعلاقتها الخارجية ٣٠١-٤٨٧هـ. ط١، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٤٢-٤٥؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، (د.ت). ص٨١-٩٠.

(٥٢) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م. ج١، ص١٨٦. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: نجم الدين بن فهد، إتحاف الوري، ج٢، ص٤١٢ وما بعدها؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٨-٩١.

(٥٣) أحسن التقاسيم، ص٩٧-٩٨. وقد أكد نجم الدين بن فهد أن مكة استمرت في ولائها للدولة العبيدية - رغم محاولات العباسيين إعادتها لسلطتهم - نحو قرن من الزمن، فقال وهو يذكر قطع محمد بن جعفر بن أبي هاشم الخطبة للحاكم العبيدي المستنصر سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م: "وأعاد الخطبة العباسية بعد قطعها من الحجاز نحو مئة سنة". (إتحاف الوري، ج٢، ص٤٧٣).

(٥٤) قال المقدسي في ذكر توابع مكة: وللمكة: منى، أمج، الجحفة، الفرع، جبلة، مهايع، حاذة، الطائف، بلدة. (أحسن التقاسيم، ص٦١).

لقد هيأت الظروف السابقة لمكة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة، فبلغت مكة آنذاك - ومن خلال نظرة المقدسي وشهادته - مكانة تفوقت بها

على عدد من المدن المعروفة في الحجاز وغيره؛ فقد عدّها المقدسي - كما بيّنا سابقاً - قسبة بلاد

هيأت الظروف السابقة لمكة السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة

الحجاز ومصره، ثم أشار خلال حديثه عن المدينة أن عمارتها أقل من نصف مكة^(٥٥)، كما ذكر أيضاً أن مكة أكبر من مدينة بيت المقدس^(٥٦). فضلاً عن ذلك فقد أشاد بمكانتها في الحجاز وعظم عمارتها، مع كثرة عدد سكانها، وازدهار تجارتها آنذاك، فقال وهو يتحدث عن ناحية قُرح^(٥٧): "ناحية قُرح: تسمى وادي القرى، وليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأمر وأهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة من هذا".

وفي إمعان النظر في أقوال المقدسي وإشاراته السابقة كَشَفَ للكثير من الحقائق والمعلومات التاريخية والحضارية المتعلقة بمكة، فهي توحى بدخول مكة في عهد جديد من الاستقرار الأمني والتطور الحضاري خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن عانت مكة خلال النصف الأول من القرن نفسه الكثير من المشاكل السياسية، والأزمات الحضارية، التي نتج عنها اضطراب الأوضاع الأمنية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية المختلفة، وتفاقم العديد من المشاكل الاجتماعية في ظل انشغال العباسيين بمشاكلهم عن بلاد الحجاز وإهمال شؤونها، وتزايد هجمات القرامطة والأعراب وتووعها على مكة وطرق الحج، وكثرة نزاعات الأشراف على السلطة. من جانب آخر فإن معلومات المقدسي - المذكورة آنفاً - لتفصح لنا أيضاً

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٨٢.

عن واقع ملموس أصبحت مكة بمقتضاه أكبر مدينة حجازية من الناحيتين الإدارية والحضارية خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن كانت المدينة تتبوأ المكانة عينها قبل ذلك.

تخطيطها وعمارتها

قسم المقدسي المعمور في مكة بعد أن أكد وقوعه حول الكعبة قسمين رئيسيين، فقال^(٥٨): "وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه المعلاة. وعرضها سعة الوادي، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة، والكعبة في وسطه". وبهذا بيّن لنا المقدسي أن مكة كانت خلال زيارته لها عبارة عن جزئين؛ المعلاة في شمال المسجد الحرام وشمال شرقه، وتشكل بمساحتها العمرانية ثلثي البلد. في حين تأتي إلى الجنوب تقريباً من المسجد المسفلة، ويشكل عمرانها الثلث المتبقي من مكة.

من جانب آخر أشار المقدسي في حديثه المقتضب عن تخطيط حي أو جانب مخصص لسكن المصريين، وهو مجموعة من الدور الواقعة إلى الغرب من المسجد الحرام^(٥٩). ولا نستبعد أن هذه الدور التي خصصت لسكن المصريين كانت حديثة النشأة، وجاءت على أثر تغلغل نفوذ حكومة مصر العبيدية في بلاد الحجاز، وخضوع أشرافه لسلطتها.

وقد وضع المقدسي أن مكة كانت إبان زيارته لها محصنة بالأسوار^(٦٠)، كما بيّن أن الدخول إليها يتأتى عبر أربعة أبواب، مصنوعة

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. ويبدو أن هذا السور هو ما بناه الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٨-٩٣٢م) على مكة. (التمساني، وصف مكة ووصف المدينة ووصف بيت المقدس. تحقيق، حمد الجاسر. مجلة العرب، ٨، ج ١، ١٣٩٣هـ، ص ٣٤). وكان أول من وضع سوراً على مكة واليهما يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي. (الفاسي، العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٦٧).

من الحديد؛ اثنين منها في الجهة الشرقية من السور، حيث يدخل منها القادمون من العراق، والثالث في الجهة الشمالية، ومنه يدخل القادمون من جهة التعيم، أما الرابع ففي الجهة الجنوبية، وعبره يجتاز إلى داخل مكة الوافدون من اليمن. يقول المقدسي مبيناً ذلك^(٦١): "ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منى نحو العراق دربان، ثم درب العمرة، ثم درب اليمن بالمسفلة، والجميع مصفحة بالحديد"^(٦٢).

أما عن دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك فذكر المقدسي أن منازلها على شكل طبقات، تبنى من الحجارة المختلفة الألوان والآجر، وتسقف بخشب الساج، فقال عنها^(٦٣): "بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضاً، وعلوها الآجر، كثيرة الأجنحة من خشب الساج، وهي طبقات مبيضة نظيفة". وقال موضحاً مواد البناء المستخدمة في أسواق منى^(٦٤): "... وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج".

وصف الكعبة

تحدث المقدسي عن الكعبة بشكل مقتضب، فلم يدخل في التفاصيل الجزئية لمكوناتها، أو يتطرق لوصف محتوياتها الداخلية، وكان أبرز ما تناوله في هذا الجانب باب الكعبة؛ فبيّن أن ارتفاعه عن مستوى الأرض يقارب طول قامة رجل^(٦٥). كما أشار إلى أنه عبارة

(٦١) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(٦٢) وللزيد من المعلومات عن سور منى وأبوابه، انظر: التلمساني، وصف مكة والمدنية وبيت المقدس، ص ٣٣٤؛ ابن جبير، الرحلة، بيروت: دار بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٨٧-٨٨، ٩١؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق، سعد زغلول عبدالحميد. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (د.ت)، ص ٦-٧.

(٦٣) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٧٥.

عن مصراعين^(٦٦) ملبسين بصفائح الفضة التي طليت بالذهب^(٦٧). فضلاً عن ذلك فقد أكد وجوده في جدارها الشرقي^(٦٨). وعندما نعمن النظر في معلومات المقدسي السابقة عن باب الكعبة - وهو الذي زار مكة مرتين، وجاور فيها، كما أشرنا سابقاً - نجدها معلومات مختصرة لا تشبع نهم الباحثين أو المهتمين وتروي غليلهم، فلم يمدنا المقدسي بمعلومات عن مقاسات الباب المختلفة، أو يصف شكله، أو يذكر المواد التي صنع منها، أو غير ذلك من جوانب تتعلق بهذا الباب لفتت أنظار كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، فضمنوا مصنفاتهم وصفاً دقيقاً لها^(٦٩).

(٦٦) وخالف الاصلحري الكثير ممن تحدثوا عن باب الكعبة، فذكر أنه مصراع واحد فقط. (مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧م، ص ١٥).

(٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٥. وكان الوليد بن عبد الملك أول من ضرب على باب الكعبة صفائح الذهب، وهو أول من ذهب البيت الحرام في الإسلام. ولم يستمر عمله طويلاً حيث رق وتفرق، فقام الخليفة العباسي الأمين أثناء خلافته بتكليف سالم بن الجراح - واليه على صوافي مكة - لعمل صفائح الذهب على الباب مرة أخرى، وزوده بثمانية عشر ألف دينار؛ ليضيفها لما تبقى من عمل الوليد، ويلبسها باب الكعبة. انظر: الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق، رشدي ملحس. ط ٩، مكة المكرمة: دار الثقافة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ج ١، ص ٢١٠-٢١١.

(٦٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٥. الجدير بالذكر أن أصل باب الكعبة المذكور كان من عمل الحجاج بن يوسف الثقفي عندما بنى الكعبة سنة ٧٢هـ. (البكري، المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ١٩٩٢م. ج ١، ص ٣٩٠). وقد استمر هذا الباب حتى سنة ٥٥١هـ عندما قام الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجواد، وبأمر من الخليفة العباسي المقتفي بعمل باب للكعبة. لمزيد من المعلومات حول باب الكعبة والمستجدات التي حدثت له، انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ١٦٨-١٧١؛ حسين عبدالله باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها). ط ٢، جدة: دار تهامة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٩٤-٢٠٣؛ إسماعيل أحمد حافظ، باب الكعبة المعظمة عبر العصور، مجلة الدارة، س ٧، ع ٣، ١٤٠٢هـ، ص ٧-٢٥.

(٦٩) لمزيد من المعلومات عن باب الكعبة وما يتعلق به، انظر: الأزرق، أخبار مكة، ج ١، ص ٣٠٥-٣٠٧؛ الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق: حمد الجاسر. ط ٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٧م، ص ٤٩٨-٤٩٩؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد. تحقيق: مفيد محمد قميحة وعبدالمجيد الترحيني. ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ج ٧، ص ٢٨٣-٢٨٤؛ التلمساني، وصف مكة =

ورغم تفاوت أقوال من سبقوا المقدسي أو جاؤوا بعده في مقدار ذرع طول الكعبة وعرضها، والذي يرجع في الغالب إلى اختلاف مقياس الذراع بينهم^(٧٠)، وكذلك ميل بعضهم أيضاً إلى عدم تساوي أضلاعها المتقابلة، إلا أن المقدسي أكد أن الكعبة عبارة عن مستطيل متساوي الأضلاع، فقال^(٧١): "وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر في ثلاث وعشرين ذراعاً وشبر".

= والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٠؛ ناصر خسرو، سفر نامه "رحلة ناصر خسرو القبادياني". ترجمة وتقديم، أحمد خالد البدلي، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ١٤٨-١٤٩؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٦-١٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٦٠.

(٧٠) هناك أذرع معروفة في الأوساط الإسلامية، منها: ذراع العمل، والذراع الزيايدي، والذراع الهاشمي وغيرها. لمزيد من المعلومات حول ذلك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٣، ص ٥١٣-٥١٤.

(٧١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٥. ويبدو أن سبب الاختلاف بين المصادر في تحديد أطوال الكعبة - بالإضافة لما ذكرنا من التفاوت في مقدار طول الذراع - زيادة الشاذروان، أخذ بعضهم المقياس من أسفلها، وبعضهم ربما أخذ المقياس من فوق الشاذروان، ولذا فقد تفاوتت المقياسات بين المصادر.

وقد توافق مقياس المقدسي بدقة مع ابن خرداذبة، انظر: (المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م، ص ١٣٢-١٣٣). كما وافقه على تساوي أضلاعها المتناظرة رغم الاختلاف في مقدار الذراع كل من: الحربي، المناسك، ص ٤٩٦-٤٩٧ (وإن كان قد شك في طول الضلع الشرقي): ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، ص ٢٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ج ١، ص ١٣٩-١٤٠؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٦٣؛ مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب. تحقيق، يوسف الهادي. ط ١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ١٢٤. وهناك من رأى اختلاف أطوال أضلاعها المتقابلة، ولا سيما الضلع الواقع ما بين الحجر الأسود والركن اليماني مع الركن المقابل له عند الحجر، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الأزرق، أخبار مكة، ج ١، ص ٢٨٨؛ البيهقي، البلدان. تحقيق، محمد أمين ضناوي. ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ١٥٣-١٥٤؛ ابن رسته، الأعلام النفيسة، تحقيق، خليل المنصور، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٢٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٨٢؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج ١، ص ٣٩٢؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٠-١١؛ الدياربيكري =

أما ارتفاع الكعبة - الذي توافق فيه كلام المقدسي مع عدد كبير ممن أشاروا إليه^(٧٢) - فبلغ على حدّ قوله سبعة وعشرين ذراعاً^(٧٣). ورغم أن المقدسي لم يحدد نقاط قياسه هذا، أهو من خارج الكعبة أم من داخلها؟ وهل أدخل الشاذروان^(٧٤) فيه أم لا؟ إلا أن الذي يتضح أن هذا المقياس كان من خارج الكعبة، كما أنه أيضاً لا يشمل الشاذروان، ويؤكد ما ذهبنا إليه الأزرقى حيث يقول^(٧٥): "ذرع الكعبة

= تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. مؤسسة شعبان، (د. ت)، ج ١، ص ١١٩-١٢٠. أما الزهري فقد ذكر أن أضلاع الكعبة الأربعة متساوية في الطول والعرض. (كتاب الجغرافية، ص ٣٤).

(٧٢) انظر: الحري، المناسك، ص ٤٩٦؛ ابن خردادبة، المسالك والممالك، ص ١٢٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ١٤٠. وجاء في بعض المصادر أن ارتفاع البيت ثمانية وعشرون ذراعاً. (اليعقوبي، البلدان، ص ١٥٣؛ إسحاق ابن الحسين، آكام المرجان في ذكر المدن المشهورة في كل مكان. تحقيق، فهمي سعد، ط ١، بيروت: عالم الكتب ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٢٧). وذكر ناصر خسرو أن الكعبة "بناء مربع إلى الاستطالة أقرب للزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وتبدو أطول من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب". (سفر نامه، ص ١٤٧-١٤٨). أما ابن جبیر فقال عن ارتفاع الكعبة مستنداً على قول حاجب البيت آنذاك محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبني: "ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب". (الرحلة، ص ٥٩).

(٧٣) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٧٤) قال النووي: شاذروان الكعبة، بناء لطيف جداً ملصق بجائط الكعبة، وارتفاعه عن الأرض في بعض المواضع نحو شبرين، وفي بعضها نحو شبر ونصف، وعرضها في بعضها نحو شبرين ونصف، وفي بعضها نحو شبر ونصف. (تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ج ٣، ص ١٧١-١٧٢). وقال الفاسي: أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخم في جوانبها الثلاثة، الشرقي والغربي واليماني، وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه، وهو شاذروان أيضاً. أما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحجر فليست شاذرواناً؛ لأن موضعها بالكعبة بلا ريب، والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض كما هي عادة الناس في الأبنية. (شفاء الغرام، ج ١، ١٨٣). وللمزيد من المعلومات عن الشاذروان وما يتعلق به من معلومات، انظر: الأزرقى، أخبار مكة، ج ١، ص ٣٠٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ١٨٣-١٨٥؛ باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ١٤٢-١٤٨.

(٧٥) أخبار مكة، ج ١، ص ٣٠٨.

من خارجها في السماء من البلاط المفروش حولها تسعة وعشرون ذراعاً وستة عشر إصباعاً، وطولها من الشاذروان سبعة وعشرون ذراعاً". وكذلك التلمساني الذي قال^(٧٦): "وارتفاع البيت في الهواء من خارج الأرض إلى أعلى البيت ثلاثون ذراعاً، طول جدار البيت منها سبعة وعشرون ذراعاً، وعليه طرابزين، تعلق منه الكسوة، وقد استعلت عليه بذراعين، فكمل بذلك ارتفاع البيت مع الكسوة والطرابزين ثلاثون ذراعاً، هذا ارتفاع البيت من الخارج".

وقد أتحننا المقدسي - وهو يتحدث عن الكعبة - بمسافة الطواف حولها، فأشار إليه قائلاً^(٧٧): "وذرع الطواف مئة ذراع وسبعة أذرع". ويبدو أن اختلافه في مقدار طول الطواف مع عدد من المصادر ناتج عن الاختلاف في التحديد الدقيق لمقدار وحدة القياس آنذاك، وهي الذراع، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً^(٧٨).

وصف الحجر (حجر إسماعيل)

تحدث المقدسي عن إدخال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الحجر ضمن الكعبة عندما أعاد بناءها خلال حركته التي قام بها في الحجاز ضد الأمويين، كما ذكر موقف الحجاج بن يوسف من ذلك بعد قضائه على حركة ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فقال المقدسي بعد أن ساق حديث عائشة رضي الله عنها الذي ينص على أن الحجر ضمن الكعبة^(٧٩): "ويقال: إن ابن الزبير أدخل عشرة من مشايخ

(٧٦) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٣٨.

(٧٧) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٧٨) ومن ذلك - مثلاً - الأزرقى الذي ذكر أن ذرع طواف واحد يبلغ (١٢٣) ذراعاً و(١٢) إصباعاً. (أخبار مكة، ج ١، ص ٣١٩): والحربي الذي بين أن طوله (١٢٠) ذراعاً. (المناسك، ص ٤٩٩)، وابن الفقيه الذي أشار إلى أن المطاف حول الكعبة يبلغ (١٠٥) أذرع. (مختصر كتاب البلدان، ص ٢١). أما ابن خرداذبة فقد وافق المقدسي في ذرعه للطواف. (المسالك والممالك، ص ١٣٣). وهذا يزيد التأكيد على أن المقدسي قد نقل جميع القياسات التي أوردها في كتابه من ابن خرداذبة، كما ألمحنا إلى ذلك سابقاً.

(٧٩) أحسن التقاسيم، ص ٧٧.

الصحابة حتى سمعوا ذلك منها، ثم أمر بهدم الكعبة؛ فاجتمع إليه الناس، وأبوا ذلك، فأبى إلا هدمها، فخرج الناس إلى فرسخ خوفاً من نزول عذاب، وعظم ذلك عليهم، ولم يكن إلا الخير. وبنائها على ما حكى عائشة، وتراجع الناس، فلما قدم الحجاج تحرم ابن الزبير بالكعبة، فأمر بوضع المنجنيق على أبي قبيس، وقال: ارموا الزيادة التي ابتدعها هذا المكلف، فرموا موضع الحطيم، وأخرج ابن الزبير وصلبه، ورد الحائط كما كان في القديم، وأخذ بقية الأحجار، فسد منها الباب الغربي، وورصف بقيتها في البيت كيلاً تضيع^(٨٠).

وقد أتى المقدسي في حديثه عن ذرع تدوير الحجر بمقياس أقل بكثير عما جاء في المصادر التي تحدثت عن هذا الجانب، فذكر أن ذرع تدويره خمسة وعشرون ذراعاً^(٨١). ومن خلال التأمل الدقيق مع النظر في ما ورد في المصادر فقد تبين لنا أن المقدسي - رغم أنه لم يفصح عن ذلك - قد أخذ مقياسه المذكور من داخل الحجر، كما أنه بدأ مع بداية الجدار الموضوع على الحجر، ولم يبدأ بركن الكعبة المحاذي للجدار. ولعل في ما أورد كل من الأزرقى والحري تبيان لذلك وتوضيح له، يقول الأزرقى عن مقياس تدوير الحجر من الداخل والخارج^(٨٢): "وذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر من خارج أربعون ذراعاً وست أصابع"، كما ذكر الأزرقى ذرع باب الحجر، فقال^(٨٣): "ذرع باب الحجر الذي يلي المشرق مما يلي المقام خمسة أذرع وثلاثة أصابع...، وذرع باب الحجر

(٨٠) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن بناء ابن الزبير للكعبة سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م، وموقف الحجاج من بنائه بعد قتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م، انظر: الأزرقى، أخبار مكة، ج ١، ص ٢٠٠-٢١٩: الحري، المناسك، ص ٤٨٨-٤٩٦: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ١٥٧-١٦١: باسلامة، تاريخ مكة المعظمة، ص ٦٧-٩٢.

(٨١) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٨٢) أخبار مكة، ج ١، ص ٣١٨.

(٨٣) أخبار مكة، ج ١، ص ٣١٨-٣١٩.

الذي يلي المغرب سبعة أذرع". ويقول الحربي في هذا الجانب أيضاً^(٨٤): "وذرع تدوير الحجر من داخل ثلاث وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر أيضاً من خارج تسع وثلاثون ذراعاً وشبر، وذرع باب الحجر الشرقي ما يلي وجه الكعبة أربع أذرع وشبر، وذرع باب الحجر الغربي ست أذرع إلا أربع أصابع". ويبدو أن الأزرقى والحربي بمقياسيهما المذكورين للحجر قد ضما إلى تدوير مقياسه أطوال الأبواب اللافظة عليه.

من جانب آخر وصف المقدسي باختصار موقع الحجر وشكله، فقال^(٨٥): "والحجر من قبل الشام، فيه يقرب الميزاب شبه أندر^(٨٦) قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه^(٨٧)، ارتفاعها حَقْو^(٨٨)، ويسمونه

(٨٤) المناسك، ص ٤٩٩.

(٨٥) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٨٦) جاء عند ياقوت الحموي الذي نقل المعلومة عن المقدسي: شبه الأندر (معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦٤). والأندر: هو البَيْدَر. وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام. وقيل: الكدس من القمح خاصة. (ابن منظور، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف (د. ت)، ج ١، ص ٢٢٩، ج ٧، ص ٤٢٨٢). وهو بهذا - كما يظهر - يُشَبَّه الحجر بالبيدر الذي غالباً ما يكون بشكل دائري.

(٨٧) قال الأزرقى عن الرخام الموضوع على جدران الحجر وأرضه بعد أن ذكر أن أبا جعفر المنصور قد كسا جدرانه بالرخام، ثم فرش المهدي أرضيته بالرخام أيضاً: "قال أبو محمد الخزاعي: أنا أدركت هذا الرخام الذي عمله (يقصد المهدي)، وكان رخاماً أبيض وأخضر وأحمر، وكان مزوياً وشوابير صغاراً، ومدخلاً بعضه في بعض أحسن من هذا العمل، ثم تكسر: فجده أبو العباس عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى وهو أمير مكة في سنة إحدى وأربعين ومئتين، ثم جدد بعد ذلك في سنة ثلاث وثمانين ومئتين". وقال في موضع آخر: "فلم يزل رخام الحجر الذي عمله المهدي بعد عمل أبي جعفر أمير المؤمنين على حاله، وكان سيله يخرج من تحت الأحجار التي على بابها الغربي حتى رث في خلافة المتوكل على الله جعفر أمير المؤمنين، فقلع سنة إحدى وأربعين ومئتين، وألبس رخاماً حسناً قلع من جوانب المسجد الحرام من الشق الذي يلي باب العجلة إلى باب دار عمرو بن العاص، ومما يلي أبواب بني مخزوم والباب الذي مقابل باب عبدالله بن جدعان". (أخبار مكة، ج ١، ص ٢١٢، ٢١٥).

(٨٨) الحَقْو، الخصر، ومشد الإزار من الجنب. (ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٩٤٨).

الحطيم^(٨٩)، والطواف من ورائه". ورغم اختصار المقدسي في وصف الحجر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عن موقع الحجر بالنسبة للكعبة عندما أشار إلى وجوده جهة الركن الشامي، ويبيّن أن ميزاب الكعبة يصب فيه. كما زدنا بمعلومات أخرى حين أكد أن جميع حيطانه وأرضه قد ألبست بالرخام، وأن ارتفاع جداره عن مستوى الأرض يقارب المتر.

الحجر الأسود

ألقي المقدسي الضوء على موقع الحجر الأسود في الكعبة وارتفاعه عن مستوى الأرض، فقال^(٩٠): "والحجر الأسود على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنسان، ينحني إليه مَنْ قَبْلَهُ يسيراً". وقد بيّن من خلال قوله: ينحني إليه مَنْ قَبْلَهُ يسيراً، أن ارتفاعه قريب من قامة إنسان، وهذا ما أشار إليه بالفعل كل من الاصطخري^(٩١) وابن حوقل^(٩٢). وكان المتوقع من المقدسي وهو قريب من أحداث هجوم القرامطة على مكة، وانتزاعهم الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، ثم أخذه إلى الأحساء، وبقائه عندهم حتى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أن يشير إلى هذا الاعتداء الأثيم على الحجر الأسود، وما لحق به من ضرر على أيديهم، ثم ما عُمِل له من طوق فضة بعد رده إلى موضعه^(٩٣).

(٨٩) اختلف حول تحديد مكان الحطيم: فقيل: إنه ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحجر إسماعيل، وقيل: الموضع الذي فيه ميزاب الكعبة، وقيل: جدار الحجر، وقيل: الشاذروان. (الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ٢١٨). وقال حسين باسلامة بعد أن ذكر الاختلافات حول تحديد مكان الحطيم بين المصادر: "فعلم مما تقدم أن الحجر يعرف أيضاً بالحطيم قديماً وحديثاً، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضاً، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمى الحطيم". (تاريخ الكعبة المعظمة، ص ١٦٥).

(٩٠) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

(٩١) مسالك الممالك، ص ١٦.

(٩٢) صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٧٩م، ص ٣٦.

(٩٣) وحول هذا الموضوع، انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ٣١٢-٣١٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الوري، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٨٠، ٣٩٤-٣٩٦.

ولكن يبدو أن ميل المقدسي للاختصار، فضلاً عن رغبته في عدم الدخول في أمور سياسية وعقدية قد تسبب له المشاكل في وقت كان للحركة القرمطية شأنها السياسي في الجزيرة العربية، قد جعله يعرض عن ذكر هجومهم على مكة، أو حتى الحديث عمّا رآه في الحجر الأسود، رغم أهمية ذلك.

عمارة المسجد الحرام

حفل أحسن التقاسيم بمعلومات وافرة ومتنوعة عن المسجد الحرام، وجاءت أغلب هذه المعلومات مركزة على جوانب عمرانية وإنشائية، فكان مما تحدث عنه المقدسي في هذا الجانب عمارة المسجد الحرام، فذكر عمارة الخليفة العباسي المنصور للمسجد التي ابتدأت سنة ١٣٧هـ / ٧٥٤م، وانتهت سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م^(٩٤)؛ وقد بيّن المقدسي - من خلال رواية أوردها عن بعض مشايخ القيروان الذين قابلهم في مكة، كما يبدو - سبب توسعة المنصور للمسجد، واعتراض أصحاب الدور المحيطة به، ثم تدخل الإمام أبي حنيفة وإقناعهم بالتوسعة، يقول المقدسي موضحاً ذلك^(٩٥): "سمعت بعض مشايخ القيروان يقول: حج المنصور؛ فرأى صغر المسجد الحرام وشعته وقلة معرفتهم بحرمته، ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بغيره وبجاوئه^(٩٦)؛ فساءه ذلك، وعزم على شراء ما حوله من الدور وزيادتها فيه، وتفخيمه وتجسيصه. فجمع أصحابها ورغبهم في الأموال الجمّة، فتأبّوا عن بيعها، وضنوا بجوار بيت الله الحرام، فاهتم لذلك، ولم يُجزَّ أن يفصّبها عليهم، ولم يظهر للناس ثلاثة أيام. وتحدث الناس بذلك، وأبو حنيفة في تلك السنة حاج، وليس له بعدُ ذكر ولا ظهر الناس على فقهه، وصائب رأيه، قال: فقصد خيامه، وكانت

(٩٤) الأزرقى، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧.

(٩٥) أحسن التقاسيم، ص٧٧-٧٨.

(٩٦) نوع من النوق ينسب إلى بلاد بُجاوة من أرض النوبة، وكانوا يطاردون عليها كما يطارد على الخيل. (ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٢١٤).

بالأبطح، فسأل عن أمير المؤمنين وما الذي غيب شخصه. فذكرت القصة، فقال: هذا باب هيّ لو لقيته عرضته عليه. فأُني ذلك إليه، فأمر بإحضاره. فلما سألته عن ذلك قال أبو حنيفة: يحضرهم أمير المؤمنين؛ فيسألهم أهذه الكعبة نزلت عليكم أم نزلتم عليها. فإن قالوا: نزلت علينا كذبوا؛ لأن منها دحيت الأرض. وإن قالوا: نحن نزلنا عليها، فجوابهم أنه قد كثر زوارها وضائق ساحتها، فهي أحق بفنائها، ففرغوه لها^(٩٧). فلما جمعهم وسألهم قال سفيرهم، وكان رجلاً هاشمياً: نحن نزلنا عليها. قال: ردوا فناءها، فقد كثر زوارها، واحتاجت إليه، فبهتوا، ورضوا بالبيع. ولم يوضح المقدسي الجوانب المعمارية المتعلقة بهذه التوسعة ومقدارها، وإنما اكتفى بالمعلومات المذكورة فقط^(٩٨).

من جانب آخر سلط المقدسي الضوء على البناء الذي رأى عليه المسجد الحرام عند زيارته لمكة، فقال^(٩٩): "وأدير على صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة رخام، حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة، والمسجد من بنائه، وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء، حمل إليها صناع الشام ومصر، ألا ترى أسماءهم عليه". وقد أبان المقدسي من خلال حديثه هذا أن المسجد الحرام ما زال حتى أواخر القرن الرابع الهجري على بناء الخليفة العباسي المهدي، الذي

(٩٧) ذكر الأزرقى أن الذي أقتع أصحاب الدور بهذه الحجة هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء توسعته للمسجد سنة ١٧هـ، كما أن الأزرقى لم يُشر في حديثه عن توسعة الخليفة المنصور للمسجد لدور أبي حنيفة. (أخبار مكة، ج٢، ص٦٩، ٧٢-٧٤). ويبدو أن ميل المقدسي للمذهب الحنفي وتفقهه فيه - كما ذكرنا سابقاً - قد شجعه لتضمين هذه الرواية التي ترفع من قدر الإمام أبي حنيفة رحمه الله في كتابه.

(٩٨) للمزيد من المعلومات عن توسعة الخليفة العباسي المنصور، انظر: الأزرقى، المصدر السابق، ج٢، ص٧٢-٧٤؛ الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق: عبد الملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص١٦٢-١٦٥.

(٩٩) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

تم خلال العقد السابع من القرن الثاني الهجري. كما أوقفنا على أجزاء من عمارة الخليفة المهدي فبيّن أن عدد أروقة المسجد ثلاثة، تدور على جنبات الصحن الأربع، وتقوم على أعمدة من الرخام الذي جلب إلى مكة من مصر. وأشار إلى أن جدران المسجد من الداخل قد زينت بالفسيفساء^(١٠٠)، ووضح أن إنجاز هذه الأعمال كان بوساطة عمال مهرة جلبوا لهذا الغرض من بلاد الشام ومصر. ثم انفراد المقدسي بمعلومة غاية في الأهمية عندما بيّن لنا أن الصناع الذين قاموا بأعمال البناء في المسجد الحرام آنذاك قد نقشوا أسماءهم على أعمالهم العمرانية، وأنه رأى ذلك بعينه باقياً خلال وجوده بمكة^(١٠١).

ومضى المقدسي في حديثه عن المسجد الحرام، فذكر أن طوله يبلغ ثلاثمائة وسبعين ذراعاً، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً^(١٠٢). وفي ما أورده المقدسي عن طول المسجد وعرضه نظر، فبالرغم من أن المسجد لم تحصل له توسعة تذكر بعد عمارة الخليفة المهدي سوى إدخال الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٤م ما تبقى من دار الندوة ضمن الجهة الشمالية من المسجد، وزيادة الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م للمسجد عند باب إبراهيم من الجهة الغربية^(١٠٣)، إلا أن المقدسي ذكر أن مقدار طول المسجد ٣٧٠ ذراعاً كما بيّنا، في حين أكدت أكثر المصادر أن طوله أكثر من ٤٠٠ ذراع. وفي الوقت نفسه فقد زاد المقدسي في ذرع

(١٠٠) أشار إلى ذلك ابن عبد ربه، فقال: "وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء". (العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣).

(١٠١) للمزيد من المعلومات عن توسعات الخليفة المهدي، انظر: (الأزرق، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤-٨١؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٦٥-١٧٤).

(١٠٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(١٠٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٢-٣٦٩؛ النهرواني، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. تحقيق، هشام عبدالعزيز عطا، ط١، مكة المكرمة: المكتبة التجارية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص١٧٨-١٨٢، ١٩٢-١٩٣.

عرض المسجد عما جاء في المصادر عندما جعل عرضه ٣١٥ ذراعاً^(١٠٤). ويبدو أن المقدسي لم يقيم بنفسه بأخذ مقياس طول المسجد الحرام وعرضه، وإنما اعتمد في ذلك على ما أورده ابن خرداذبة^(١٠٥). ولعل معرفة المقدسي وبقينه بأنه لم يطرأ على المسجد الحرام أي تغير فيما بعد ابن خرداذبة قد دفعه للاعتماد على معلوماته دون تمحيص أو تطبيق^(١٠٦).

أبواب المسجد الحرام

تناول المقدسي بالحديث أبواب المسجد الحرام، فقال^(١٠٧): "وله تسعة عشر باباً: باب بني شيبعة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزازين، باب الدقاقين^(١٠٨)، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب أجياد،

(١٠٤) اتفقت مجموعة من المصادر أن طول المسجد في عرضه (٤٠٤×٤٠٣). انظر؛ الأزرقى، ج٢، ص٨٢. (إلا أنه ذكر أن عرضه مع أطرافه يبلغ ٢٧٨ ذراعاً)؛ اليعقوبي، البلدان، ص١٥٣؛ ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص٤٦؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٢؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩١-٣٩٢. في حين جاء طوله وعرضه في مصادر أخرى (٢٨٠×٤٠٧). (التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٢؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٣-٢٤). كما ذكرت مصادر ثالثة أنه (٣٠٤×٤٠٠) ذراع. (إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٧؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص١٤٥). إلا أن ناصر خسرو أكد أن عرض المسجد متفاوت في مقياسه عندما قال: "ومساحة عرض المسجد ليست واحدة دائماً، ولكن ذرعت أوسع جهاته فبلغت ثلاثمئة ذراع في مكان وأربعمئة ذراع في مكان آخر، فهذا الجانب العرضي به نتوءات لا تسمح باطراذه". أما ابن الفقيه - الذي يبدو أنه نقل من الأزرقى - فذكر أنه (٢٧٨×٣٠٤) ذراعاً. (مختصر كتاب البلدان، ص٢١).

(١٠٥) المسالك والممالك، ص١٣٢.

(١٠٦) الجدير بالذكر أن الفاسي أشار إلى أن رواية ابن خرداذبة في ذراع المسجد طولاً وعرضاً رواية غريبة. (شفاء الغرام، ج١، ص٣٧٠).

(١٠٧) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٠٨) قال ابن منظور: الدق كل شيء دق وصغر. والدقيق: الطحين. وأهل مكة يسمون توابل القدر كلها دقة. والدقة: التوابل وما خلط بها من الأبخار. (لسان العرب، ج٣، ص١٤٠٢). ومن ذلك يتضح أن المقدسي أراد بذلك باعة التوابل وما شابهها، خصوصاً، وقد كانت هذه السلع منتشرة بكثرة في مكة آنذاك.

باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة". وكما نرى فإن المقدسي اقتصر على ذكر عدد أبواب المسجد الحرام وأسماؤها دون أن يذكر مواقعها بالنسبة لجهات المسجد.

وقد اتضح - بعد تتبع ما جاء عنها في عدد من المصادر - أن المقدسي بدأ بسرد أسماؤها مبتدئاً من الجهة الشرقية، متجهاً من الشمال إلى الجنوب، وكان مما رآه في هذا الجانب خمسة أبواب؛ هي: باب بني شيبعة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، وباب البزازين.

ثم أعقب ذلك بأبواب الشق الجنوبي من المسجد مبتدئاً من الشرق ومنتهاً بالغرب، وفيه أورد سبعة أبواب؛ هي: باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، وباب أجياد.

وانتقل بعد ذلك إلى الجانب الغربي من المسجد، فذكر الأبواب الموجودة فيه من الجنوب إلى الشمال، وعددها ثلاثة أبواب؛ هي: باب الحزورة، باب إبراهيم، وباب بني سهم. ثم ختم كلامه بأبواب الشق الشمالي من المسجد، وذكر منها أربعة أبواب؛ هي من الغرب إلى الشرق: باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، وباب البشارة.

وفي الاطلاع على ما جاء حول هذا الجانب في المصادر إبان العصور الإسلامية المختلفة نلاحظ تبايناً واضحاً في أسماء أبواب المسجد الحرام وعددها. ويبدو أن ذلك قد تحكمت فيه اجتهادات المؤلفين، ولا سيما في تسمية الأبواب غير المشهورة^(١٠٩). كما أن إدراج بعض الأبواب اللافتة على البيوت المجاورة للحرم مباشرة

(١٠٩) يقول ابن جبير موضحاً ذلك، بعد أن ذكر أبواب المسجد الحرام: "والروايات فيها تختلف، لكننا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسماؤها إلى الصحة، والله المستعان لا رب سواه". (الرحلة، ص ٨٣).

ضمن أبواب الحرم في بعض المصنفات، واقتصارها عند آخرين على ما يفتح على أزقة أو أسواق قد أدى إلى التفاوت الواضح في تعدادها بين المصادر^(١١٠).

ونلاحظ أن المقدسي قد اجتهد كثيراً في تسمية بعض الأبواب وذلك حسب ما رآه منتشراً من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب، ولا سيما في الجانبين الشرقي والجنوبي^(١١١)، وما أملاه عليه حسه التجاري الذي تميز به، فأطلق عليها أسماء الباعة أو مبيعاتهم دون أن يرجع لمن سبقه ممن تحدثوا عن ذلك، كالأزرقي أو الفاكهي أو غيرهم. ولهذا فإننا نرى أن تسميات المقدسي لهذه الأبواب، التي ترتبط - كما يلحظ - بالتغيرات الزمانية والمكانية، كانت سبباً في عدم استمرار هذه الأسماء التي أطلقها، أو ذكرها في المصادر التي تناولتها، سواء قبل المقدسي أو بعده.

من جانب آخر فإن المقدسي ومن خلال تعداده لأبواب المسجد الحرام قد راعى - فيما يبدو - الأفضلية، فبدأ بذكر باب بني شيبه؛ لأن المستحب للمعتمر والحاج الدخول للمسجد من هذا الباب^(١١٢).

(١١٠) وعن عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها، والاختلاف في ذلك، انظر على سبيل المثال: الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٨٧-٩٥؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ١٨٨-١٩٨؛ الحربي، المناسك، ص ٤٧٥-٤٨٠؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢١؛ ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ٤٩-٥٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٨٣؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٢-٣٤٥؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص ٢٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج ١، ص ٣٩٢-٣٩٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ٢٤-٢٧؛ ابن جبیر، الرحلة، ص ٨٢-٨٣؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٢٨١-٢٨٥؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط ٢، جدة: دار تهامة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١١٢-١٣٤.

(١١١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(١١٢) يقول ابن جبیر: "وكل وافد إلى مكة، شرفها الله، يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بني شيبه". (الرحلة، ص ٨٣). وهو المعروف الآن بباب السلام. (الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣٨١).

المطاف: أرضه وإنارته

أتحفنا المقدسي بمعلومات دقيقة وقيمة عن المطاف حول الكعبة، فذكر لنا أن مكان الطواف مفروش بالرمل، أما بقية أرضية المسجد فهي مغطاة بالحصى، يقول^(١١٣): "وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى"^(١١٤). كما شرح طريقة إنارة المطاف، فقال^(١١٥): "وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر، وخشبات فيها قناديل معلقة، ويجعل فوقها الشمع لملوك مصر واليمن والشار صاحب غرجستان". كما أشار إلى أن هذه القناديل كانت تعلق بالسلاسل، فقال وهو يتحدث عن بعض العادات السائدة في بلاد الشام^(١١٦): "ورسومهم أنهم يوقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة". وقد وضع المقدسي من خلال ذلك كيفية إنارة المطاف، بعد أن بيّن أن هناك أعمدة، أطلق عليها اسم الأميال، مصنوعة من حديد الصفر، وتصل بينها أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفي هذه القناديل كانت توضع الشموع^(١١٧).

(١١٣) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٤) جاء في كتاب الاستبصار ما نصه: "وأرض المسجد الحرام رملة في قوام السميد". (مؤلف مجهول، ص٢٩). أما ابن جبير فقال: "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض". (الرحلة، ص٦٣).

(١١٥) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(١١٧) قال الأزرقى عن العمدة الصفر بالمسجد الحرام: "أخبرني الثقة أن هذه العمدة الصفر كانت في قصر بابك الخرمي بناحية أرمينية كانت في صحن داره يستصبح فيها، فلما خذله الله، وقتل بابك، وأتى برأسه إلى سامراء، وطيف به في البلدان، وكان قد قتل خلقاً عظيماً من المسلمين، وأراح الله منه هدمت داره، وأخذت هذه الأعمدة التي حول البيت الحرام في الصف الأول، ومنها في دار الخلافة أربعة أعمدة، ويعد هذه الأعمدة المعتصم بالله أمير المؤمنين في سنة مئتين ونيّف وثلاثين، فهذا خبر الأعمدة الصفر التي حول الكعبة وهي عشرة أساطين، وكانت =

من جهة أخرى فإن المقدسي قد أمدنا - بطريق غير مباشر - في حديثه المذكور آنفاً بمعلومات سياسية غاية في الأهمية، فبين من خلال عدم مشاركة الخلافة العباسية في إنارة المسجد الحرام أن سلطتها لم تكن نافذة على حكام مكة خلال وجوده فيها، وفي الوقت نفسه أكد ما أشار إليه سابقاً من أن نفوذ العبيديين (الفاطميين) كان سارياً آنذاك على أشرف مكة^(١١٨). من جانب آخر أشار المقدسي إلى مشاركة يمنية في الأعمال الخيرية بمكة، ويبدو أن خضوع بني زياد آنذاك للعبيديين، ودعوتهم لهم على المنابر اليمنية قد منح الحكومة الزيدية في اليمن فرصة المشاركة في بعض الأعمال الخيرية في مكة إبان نفوذ العبيديين فيها، ولا سيما في ظل قوة بني زياد السياسية والاقتصادية في اليمن إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري^(١١٩)، إضافة لاهتمامات وزير الزيديين - المعروف بالحسين بن سلامة - الخيرية، ورغباته المتنوعة لخدمة الحجاج؛ سواء على طرق الحج، أو في مكة والمشاعر المقدسة^(١٢٠).

= أربع عشرة أسطوانة فأربع في دار الخلافة بسامراء". (أخبار مكة، ج ١، ص ٢٨٦). وقال ناصر خسرو: "ويحيط بالكعبة من جميع جهاتها أساطين، ويربط كل عمودين غطاء خشبي في الأعلى مزين بنقوش وتهاويل كثيرة. ويتدلى من ذلك الغطاء سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً، وتسمى بسكة المشاعل. والمسافة بين هذه المشاعل والكعبة نحواً من مئة وعشرين شبراً، وهي موضوعة بحيث لا تعيق الطائفتين بالبيت". (سفرنامه، ص ١٥٢).

(١١٨) كما ذكرنا سابقاً فإن المقدسي قد زار مكة حاجاً مرتين: إحداهما في سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م، والأخرى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م. (أحسن التقاسيم، ص ٩٥). ويبدو أنه دون معلوماته هذه بعد زيارته الأخيرة، حيث كانت مكة خاضعة آنذاك للحكم العبيدي، عقب صراع مرير - كما ذكرنا سابقاً - بين العباسيين والعبيديين.

(١١٩) عن نفوذ الزيديين وراثتهم، وكذلك دعوتهم للعبيديين، انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٢.

(١٢٠) عمارة اليمن، تاريخ اليمن، المسمى "المفيد في أخبار صنعاء وزبيد". تحقيق، محمد علي الأكوغ، ط ٣، صنعاء: المكتبة اليمنية ١٩٨٥م، ص ٦٧-٧٤.

وفي الوقت نفسه أفادنا المقدسي أيضاً - ومن خلال حديثه عن الإنارة في المطاف - بمعلومة ثمينة انفرد بها عن غيره، عندما أكد مشاركة سلطان إقليم غرجستان - القابع في منطقة الجبال الواقعة شمال شرق مدينة هراة بخراسان - بأعمال خيرية في المسجد الحرام، وكان ملك هذه المنطقة المعروف بالشار، قد شُهر بالعدل حتى قال عنه المقدسي^(١٢١): "وَتَمَّ عدل حقيقي، ونظر عزيزي، وبقية من سنن العُمَرَيْن، ورسوم تقر بها العين، لا عمال ظلمة ولا أسباب مغيرة، ما يُوخذ من أغنيائهم فهو موضوع في فقرائهم، ومن جنى جناية فالعضو أو الحدُّ، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى". كما قال عنه المقدسي أيضاً في موضع آخر^(١٢٢): "طوبى لأهل الفرج بعدل الشار". ولا شك أن توجه ملك هذه المنطقة الديني، ورغبته في المشاركة في خدمة المسلمين، إضافة لمقدرته المادية في ظل ازدهار موارد بلاده الاقتصادية آنذاك، قد دفعه - بلا شك - للإسهام في خدمة المقدسات الإسلامية، والمشاركة بأعمال خيرية تذكر له فيها^(١٢٣).

قبة زمزم وقبة الشراب

ولم يترك المقدسي - وهو يتحدث عمّا رآه داخل المسجد الحرام - ذكر بئر زمزم، فقال عنها^(١٢٤): "وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما"، وقد بيّن من خلال هذه الجملة المختصرة أن موقع بئر زمزم

(١٢١) أحسن التقاسيم، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن منطقة غرجستان، انظر: الاضطخري، مسالك الممالك، ص ٢٧١-٢٧٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٣-٢٤٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٩٣-١٩٤؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة، بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٤٥٨.

(١٢٤) المصدر السابق، ص ٧٥.

مقابل لباب الكعبة، ولكنه لم يذكر بعدها عنه. كما أشار إلى أن عليها قبة، دون أن يصف لنا حال زمزم في وقته، وما عليها من بنايات أخرى، وغور مائها، وأطوالها، أو حتى كيفية وضع هذه القبة ومواصفاتها العمرانية. ورغم إشارته إلى أن الطواف يقع فيما بين بئر زمزم والكعبة، إلا أنه أيضاً لم يذكر المسافة بينهما^(١٢٥).

ثم أشار المقدسي إلى موقع آخر مجاور لزمزم مشابه لها، وهو قبة الشراب المعروفة بسقاية العباس وصُفِّة زمزم أيضاً^(١٢٦)، فقال بعد أن ذكر قبة زمزم^(١٢٧): "ومن ورائها قبة الشراب، فيها حوض كان يسقى فيه السوق والسكر في القديم". وبهذا فإن المقدسي قد أكد من خلال ذلك أن بيت الشراب يقع خلف زمزم، وأن عليه بناء تغطيه قبة، وفيه بقايا حوض لسقاية الحجاج. كما أفادنا من خلال حديثه السابق أيضاً أن هذه السقاية كانت متوقفة في العهد الذي زار فيه

(١٢٥) قال التلمساني - الذي عاش في القرن الرابع الهجري - يصف بئر زمزم: "غور بئر زمزم من أعلاها إلى قاعها اثنا وسبعون ذراعاً، من وجه الماء إلى أعلى البئر أربعة وثلاثون ذراعاً، ومن وجه الماء إلى قاع البئر ثمانية ثلاثون ذراعاً لا يزيد ولا ينقص... ودور سعة البئر ثمانية عشر ذراعاً وذرع ضوئها ستة أذرع، وعليها قبة مربعة على ست عشرة سارية منقوشة كلها، وأربعة أركان مغلقة كلها بشراجب الحديد، ترجع إلى بويب لطيف من ناحية سقاية زبيدة، قاعها مبسوط بالرخام، وسقفها مكنس منقش من داخله في الساج، معمول من خارجه بالفسيفساء من أعلاه قبيبة سوسنة من نحاس، يوقد على جميعها الشمع ليلة الختمة، وقبة زمزم هذه تقابل من الكعبة الملتزم، ما بين الركن الأسود وباب الكعبة، ويخرج ركن القبة عن ركن الكعبة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٣). وقال ابن عبد ربه: "وزمزم بشرقي الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة، تنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منهما عمودان من رخام متلاصقان، وقد سد ما بين كل ركنين منهما بشرجب خشب، ورد إلى باب من جهة المشرق، وحول القبو كله مثل البرطلة". (العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٨٦).

(١٢٦) الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ١٠٤-١٠٦؛ الفاكي، أخبار مكة، ج ٢، ص ٨٣-٨٥. ولمزيد من المعلومات عن هذه السقاية والقبة، انظر الصفحات المحددة من هذين المصدرين.

(١٢٧) أحسن التقاسيم، ص ٧٥.

مكة، وهو في الوقت ذاته يؤكد - وبطريق غير مباشر - أن بيت الشراب كان يستعمل خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري - وهي فترة وجود المقدسي في مكة - كمخزن لحفظ أوقاف الحرم، وإن لم يصرح بذلك، وهذا ما أشار إليه التلمساني^(١٢٨)، وأكد استمراره حتى أواخر القرن السادس الهجري ابن جبير أيضاً^(١٢٩). من جانب آخر فإن عدم إشارة المقدسي لبيت اليهودية، واقتصراره على ذكر قبة زمزم وقبة الشراب فقط كأبرز بنايتين داخل المسجد، ليؤكد أن هذا البيت كان خرباً آنذاك، وهذا ما صرح به التلمساني عند حديثه عن هذا المكان^(١٣٠).

مقام إبراهيم

أما المقام فقد توسع المقدسي قليلاً في الحديث عنه، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات غاية في الأهمية، حيث قال^(١٣١): "والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام الموسم". والمقدسي بهذا النص بين لنا موضع المقام بالنسبة للبيت الحرام، ووضح أنه أقرب إليه من بئر زمزم، كما أشار إلى وجوده ضمن نطاق المطاف، ومع تكاثر الناس أيام الحج وازديادهم يطوف بعض الناس من ورائه.

(١٢٨) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٣.

(١٢٩) قال ابن جبير عن قبة الشراب: "وتلي قبة زمزم من ورائها قبة الشراب، وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه. وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية. وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرايية؛ لأنها كانت سقاية الحاج. وهي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم". (الرحلة، ص ٦٦).

(١٣٠) قال التلمساني بعد أن تحدث عملاً رآه قائماً في المسجد الحرام: "ليس في المسجد غير ذلك إلا أثر قبة اليهودية، وهو دور من رخام أسود بإزاء قبة الشراب، ارتفاعه من الأرض قدر الشبر". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٣). ويبدو أن بناءها قد أعيد فيما بعد حيث أشار ابن جبير - كما يتضح في الهامش السابق - أنها كانت ضمن مخازن أوقاف الحرم عندما زار مكة آنذاك.

(١٣١) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

ثم وصف المقدسي الوضع الذي رأى عليه المقام ولونه وحجمه، فقال^(١٣٢): "ويُكَبُّ عليه صندوق حديد عظيم راسخ في الأرض، طوله أكثر من قامة، وله كسوة، ويرفع المقام في كل موسم إلى البيت، فإذا رد جعل عليه صندوق خشب، له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلم الإمام استلمه ثم أغلق الباب، وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام، مخالفة، وهو أسود وأكبر من الحجر". والمقدسي بهذا الطرح قد أفادنا - رغم عدم إسهابه في بعض الجوانب - بمعلومات ثرة وغنية عن بعض الجوانب والتنظيمات المتعلقة بالمقام آنذاك، فوضّح أن هناك صندوقين خصصا لتغطيته حسب الظروف والمناسبات، أحدهما مصنوع من الحديد والآخر من الخشب^(١٣٣)، كما أشار إلى أن المقام مرفوع عن مستوى الأرض بما يعادل قامة إنسان، وبيّن أنه رأى على المقام كسوة^(١٣٤).

إضافة إلى ذلك فقد وضّح المقدسي أن المقام غير ثابت في مكانه طوال السنة، حيث ذكر أنه ينقل إلى داخل البيت الحرام في الموسم. فضلاً عن ذلك فقد أكد أن لصندوقه الخشبي باباً يفتح للإمام عند أداء الصلاة، فإذا انتهى الإمام من أداء الفرض استلمه، ثم يغلق هذا الباب بعد ذلك^(١٣٥). وقد رأى المقدسي داخل الصندوق أثر قدم إبراهيم عليه السلام بشكل متخالف^(١٣٦).

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٣٣) ذكر ابن جبير أن صندوق الحديد يوضع على المقام أثناء الموسم؛ ليتحمل الزحام، أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من خشب. (الرحلة، ص ٦٣).

(١٣٤) انفرد المقدسي بذكر هذه الكسوة، فلم أجد فيما توافر لدي من مصادر أي إشارة لهذه الكسوة. وقد ذكر باسلامة أن العثمانيين كانوا يكسون المقام مثل كسوتهم للكعبة. (تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ١٦٢).

(١٣٥) ذكر ابن جبير أن ذلك كان سائداً عند زيارته مكة في أواخر القرن السادس الهجري. (الرحلة، ص ١٠٩).

(١٣٦) لم أجد فيما توافر لدي من مصادر من يؤيده فيما ذهب إليه في أن أثر القدمين متخالف.

أما عن لون حجر المقام وحجمه فقد قارنهما بالحجر الأسود، وأكد من خلال ذلك أنه أسود منه في اللون وأكبر منه أيضاً في الحجم^(١٣٧).

المسعى

وكان مما تحدث عنه المقدسي المسعى، فقال^(١٣٨): "ويقع السعي بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثم أميال خضر".

وقد بيّن من خلال ذلك أن الساعي بين الصفا والمروة لا بد أن يجتاز السوق الشرقي المجاور للمسجد الحرام.

كما أشار إلى مواقع الأميال التي يرمل فيما بينها الحاج والمعتمر أثناء سعيه، فذكر أنها فيما بين زاوية المسجد الجنوبية الشرقية حتى باب بني هاشم، ووضح أن هذه الأميال قد طليت باللون الأخضر.

وقد بيّن المقدسي ما يقتضي التصاق الصفا بجبل أبي قبيس؛ وذلك عندما أشار إلى إطلالة هذا الجبل على المسجد الحرام، ووجود درج في الصفا يصعد منها إليه، فقال^(١٣٩): "وأبو قبيس مطل على المسجد يصعد إليه من الصفا على درج"^(١٤٠).

(١٣٧) للمزيد من المعلومات عن المقام، انظر: الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٣٩؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج ١، ص ٤٨١-٤٨٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٨٥-٢٨٦؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٢٤١-٢٤٢؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٥١؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٦٢-٦٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ٢٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٢٢٧-٢٣٨؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ١٣٥-١٦٧.

(١٣٨) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٤٠) قال التلمساني: "والصفا حجر أزرق عظيم، قد كسي بالدرج، ومن عليها يُصعد إلى أبي قبيس، عدد درجها ثلاثون درجة إلى موضع الوقوف منها ثماني عشرة درجة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٥).

المصادر المائية

كشف المقدسي عن أنواع متعددة وأشكال مختلفة من مصادر المياه التي كانت تغذي مكة ومشاعرها المقدسة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فكان مما ذكر في هذا الجانب ثلاث برك للماء في مكة نفسها، فقال^(١٤١): "وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة"^(١٤٢) من بستان بني عامر". ويؤكد المقدسي - وهو يكتفي بذكر ثلاث برك فقط في مكة دون تحديد مكانها - فقدان مكة آنذاك لخدمات مجموعة أخرى من البرك المعدة لحفظ المياه في عدد من أحيائها، فالمعروف أن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور قد وضعت في سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩م بركة ضخمة في المعلاة بعد أن جلبت لها المياه من خارج مكة عبر قنوات خصصت لهذا الشأن، كما أن الخليفة العباسي المأمون - وعن طريق واليه على مكة صالح بن العباس - قد أنشأ سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م خمس برك أخرى في أحياء مكة، تمت تغذيتها بالماء من بركة زبيدة بالمعلاة^(١٤٣). من جانب آخر فإن معلومة المقدسي المذكورة آنفاً لتؤكد أيضاً استمرار عمل القناة التي شقتها زبيدة، إلا أن اقتصاره على ذكر بستان بني

(١٤١) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(١٤٢) هي أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بزبيدة زوج هارون الرشيد وأم ولده الأمين. كانت معروفة بالبذل على أهل العلم، والبر للفقراء والمساكين. ولها آثار خيرية كثيرة على طرق الحج العراقية، وكذلك بمكة والمدينة. توفيت ببغداد سنة ٢١٠هـ. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤٢٣).

(١٤٣) لمزيد من المعلومات عن هذه الأعمال، انظر: الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ١٥٢-١٥٥؛ العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة: المطبعة السلفية، (د. ت)، ج ٤، ص ٩٦-٩٧. وخراب بعض البرك في مكة أكده ابن حوقل عندما قال وهو يتحدث عن المياه فيها: "وكانت أكثر مياههم من السماء إلى مواجن وبرك كانت بها عامرة، فخربت باستيلاء المتوالين على أموال أوقافها واستئثارهم بها". (صورة الأرض، ص ٣٧).

عامر مصدرًا تأتي منه مياه مكة آنذاك^(١٤٤) دون غيره من المواقع الأخرى التي أجرت زبيدة منها مشروعاتها الخيرية قد يوحى بتعطل هذه العيون، وتوقفها عن العمل إبان وجود المقدسي بمكة، ولا سيما وأن بعض المؤرخين مثلاً قد أشار إلى انقطاعها في بعض الفترات التاريخية عن مكة^(١٤٥). الجدير بالذكر أن الماء في قناة زبيدة كان - وفق ما ذكر المقدسي - من النوع الخفيف^(١٤٦).

ورغم إجماع كثير من المصادر على عدم صلاحية مياه آبار مكة للشرب بل وصعوبة استساغتها^(١٤٧) إلا أن المقدسي قد أشار إلى وجود عدد من

(١٤٤) ويقصد - كما يبدو - العين المعروفة بالمشاش؛ لأن هذه العين جهة عرفة، حيث يستان ابن عامر هناك. ويؤكد ذلك ياقوت الحموي الذي قال: المشاش وهو الذي يجري بعرفات، ويتصل إلى مكة. (معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣١). وكانت عين المشاش هذه قد تعرضت للتخريب سنة ٢٦٨هـ / ٨٨١م من قبل عيسى بن محمد المخزومي الذي أرسله صاحب الزنج للسيطرة على مكة آنذاك. (ابن فهد، إتحاف الوري، ج ٢، ص ٣٤٢-٣٤٣). ويبدو أنه أعيد إصلاح هذه العين فيما بعد، كما يتضح من كلام المقدسي المذكور آنفاً.

(١٤٥) العصامي، سمط النجوم العوالي، ج ٤، ص ٩٦.

(١٤٦) أحسن التقاسيم، ص ٩٥. وقد أشار إلى مواصفات الماء الخفيف بقوله: "فإن قال قائل: ومن أين علمت خفة المياه من ثقلها قيل له: بأربعة أشياء، إحداهن: أن كل ماء يبرد سريعاً فهو خفيف... والثانية أن الماء الخفيف يبطي تحليه، ومن شرب ماءً ثقيلًا أسرع بوله. والثالثة الماء الخفيف يُشهي الطعام ويهضمه. والرابعة إذا أردت أن تعرف ماء بلد؛ فإذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء؛ فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وإن رأيتها كوجوه الموتى، ورأيتهم مطامني الرؤوس، ففعل الخروج منها". (أحسن التقاسيم، ص ٩٥-٩٦).

(١٤٧) ومن المصادر التي ناقضته في مسألة عذوبة مياه آبار مكة - على سبيل المثال - البيهقي، حيث يقول: "وشرب أهل مكة من آبار ملحة، ومن القنوات التي حفرتها أم جعفر بنت جعفر بن أمير المؤمنين المنصور". (البلدان، ص ١٥٤). وناصر خسرو الذي قال عن مياه مكة خلال سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م: "والمياه في مكة كلها شديدة الملوحة، ظاهرة المرارة حتى لا يمكن استساغتها، ولكن يوجد في مكة كثير من الأحواض والمصانع العظيمة التي بلغت تكاليف إنشاء بعضها عشرة آلاف دينار، وتملاً هذه الأحواض والمصانع من السنين الخصب التي تجود فيها السماء بالماء. أما هذا العام فإن تلك الأحواض والمصانع قد جفّت ولا قطرة ماء بها". (سفرنامه، ص ١٤٠). وقال الإدريسي أيضاً بعد أن ذكر ما أجري لمكة بوساطة زبيدة: "ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤه شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه". (نزهة المشتاق، ج ١، ص ١٤٠). أما الأزرقى والفاكهي فقد ذكرا عدداً من الآبار بمكة دون أن يشيرا إلى طبيعة مائها.

الآبار العذبة فيها، دون أن يحدد عددها أو مواقعها^(١٤٨). ويبدو أن المقدسي يقصد تلك البئر العذبة والعظيمة التي تكفل بحضرها الوزير العباسي علي بن عيسى^(١٤٩) عند الحناتين^(١٥٠)، والتي وَسَّعَتْ على أهل مكة والوافدين إليها، وخففت عنهم مشقة الحصول على الماء آنذاك^(١٥١).

أما زمزم فذكر المقدسي - وهو يتحدث عن المياه في إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة - أنه وجد الماء فيها كريها أثناء حجه سنة ست وخمسين وثلاثمئة، وطيباً خلال حجته الثانية التي أداها بها سنة سبع وستين وثلاثمئة^(١٥٢). ولا نفضل - ما دنا في الحديث عن الآبار - مجموعة ذكر المقدسي أنه رآها في منى تؤدي دورها، ولكنه لم يحدد عدد هذه الآبار أو طبيعتها ونوعية مائها^(١٥٣).

بيد أن هناك مصادر أخرى للمياه أشار إليها المقدسي في مكة ومشاعرها المقدسة، منها بعض المصانع^(١٥٤) في منى^(١٥٥)، وعدد من

(١٤٨) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(١٤٩) هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ولد سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م. تربي تربية صالحة في أسرة علمية، تولى مناصب مهمة عدة في الدولة العباسية، أبرزها الوزارة التي تولّاها أكثر من مرة، كان أولها سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م. توفي سنة ٣٣٤هـ. لمزيد من المعلومات عنه، انظر: الصابئ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق، خليل المنصور. ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٢٠٧-٢٦٥؛ ضيف الله يحيى الزهراني، الوزير علي بن عيسى بن داود الجراح: إصلاحاته الاقتصادية والإدارية. ط ١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(١٥٠) الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢١١.

(١٥١) الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢١١: آدم منز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ص ٢٣٠.

(١٥٢) أحسن التقاسيم، ص ٩٥. ويعلل عدي مخلص ذلك بقوله: "ولعل ذلك متأث من تفاوت كمية الماء في البئر بين موسم الجفاف وموسم الأمطار، وتأثير ذلك على تركيز المواد المعدنية في مياه البئر". (المقدسي البشاري، ص ٤٥). ولم أجد في المصادر المتاحة ما يوحي بنقص المياه أو زيادتها في مكة خلال الفترة المذكورة.

(١٥٣) أحسن التقاسيم، ص ٧٨.

(١٥٤) المصانع، هي أحباس تتخذ للماء، واحدها مصنعة ومصنع. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٦).

(١٥٥) أحسن التقاسيم، ص ٧٨.

البرك مع سقاية قرب جبل ثبير بالمزدلفة^(١٥٦)، إضافة لمجموعة أخرى من السقايات والأحواض التي تغذيها قناة في عرفة، منها حوض أشاد المقدسي بكبر حجمه عند مصلاها^(١٥٧). فضلاً عن وجود عدد من السقايات في التعميم^(١٥٨). ورغم هذه الإشارات المتعددة من المقدسي لنوعيات مختلفة من مصادر المياه في مكة، إلا أننا لم نر منه ما يروي غليل الباحث من وصف لهذه المنشآت أو ذكر لتاريخها أو تحديد أعدادها.

النشاط التجاري

لعل من حسن الطالع أن زيارة المقدسي لمكة جاءت في وقت شهدت فيه الأوضاع الأمنية في الحجاز نوعاً من الاستقرار والهدوء، فضلاً عن الانفتاح نحو مصر بخيراتها الاقتصادية المتعددة، وحكومتها العبيدية التي أولت الجانب التجاري آنذاك مزيداً من العناية، بعد أن وفرت السبل الكفيلة بنجاح التجارة الداخلية، وانفتحت على العالم الخارجي؛ لتزدهر الحركة التجارية في البحر الأحمر وتتمو التجارة في موائنه. وقد حفل كتاب أحسن التقاسيم بمعلومات اقتصادية ثرة ومتنوعة ولا سيما ما يتعلق منها بجوانب التجارة المختلفة، ويبدو أن المقدسي قد وجد من تطور التجارة في مكة آنذاك فرصة لإشباع ميوله ورغباته التجارية، فتحدث عن جوانبها بحس تجاري متمكن ودقيق.

١ - الأسواق

كانت الأسواق المنتشرة حول المسجد الحرام من أبرز ما تناوله المقدسي في حديثه عن النشاط التجاري في مكة، فقال في خضم حديثه عن المسجد^(١٥٩): "وإليه الأسواق من الشرق والجنوب"، وفي

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(١٥٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

تسميته لبعض أبواب المسجد الحرام تبيان لبعض هذه الأسواق، وإفصاح عن السلع والحرف الموجودة فيها، وكان مما ذكر باب الزياتين وباب البزازين في الجهة الشرقية، وباب الدقاقين وباب التمارين، وباب زقاق الشطوي في الجهة الجنوبية^(١٦٠). كما أشار المقدسي - وهو يتحدث عن المشاهد بمكة - إلى أبرز سوقين شرق المسجد الحرام، هما سوق البزازين وسوق العطارين، فقال^(١٦١): "ودار الأربعين بالبزازين^(١٦٢)، ودار خديجة خلف العطارين". كما ألمح أيضاً إلى هذين السوقين دون أن يصرح باسمهما، وذلك عندما قال^(١٦٣): "ويقع المسعى بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثم^(١٦٤) أميال خضر، وخلف هذين السوقين آخران إلى آخر المعلاة بينهما منافذ"^(١٦٥). أما السوقان الآخران اللذان أشار إليهما المقدسي في هذا النص فقد وضّح أن أحدهما هو سوق الردم^(١٦٦)، والآخر سوق الليل، وذلك من خلال

(١٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٦١) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(١٦٢) والمقصود بها دار الأرقم بن أبي الأرقم، كما سيأتي بيان ذلك عند ذكر المشاهد بمكة في آخر البحث.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٦٤) قال ابن منظور: ثَمَّ في المكان: إشارة إلى مكان منزاح عنك. وثَمَّ: بمعنى هناك للتباعد بمنزلة هنا للتقريب. (لسان العرب، ج ١، ص ٥٠٨).

(١٦٥) يقول ابن جبير موضحاً الأسواق الشرقية من المسجد الحرام: "وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعمية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهم عند باب بني شيبه تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها". (الرحلة، ص ٨٥).

(١٦٦) الردم: هو ما وضع لصرف السيول عن بعض الأماكن. وقد وضع في مكة في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين أكثر من ردم. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ١١٢-١١٤. ورغم أن المقدسي لم يوضح اسم الردم الذي فيه السوق المذكور، إلا أن سياق الكلام يبيّن أن المقصود ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي يقع في المنطقة التي أشار إليها المقدسي.

قوله^(١٦٧): "فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبه فليتيامن، وليسلك سوق الردم، ولا يسلك سوق الليل".

إن معلومات المقدسي المذكورة آنفاً لتؤكد لنا كثرة الأسواق الدائمة، وانتشارها بشكل واسع حول المسجد الحرام، كما تفيدنا في الوصول إلى طبيعة مبيعاتها، فهناك المتخصص منها؛ كسوق العطارين، وسوق البزازين، وسوق الزياتين، وسوق الدقاقين، وسوق التمارين، وسوق الأقمشة والملابس (الشطويين). ومنها ما هو عام - كما يبدو - كسوق الردم، وسوق الليل، الذي أكد الأزرق احتواءه على مجموعة من الأسواق المختلفة والسلع المتنوعة^(١٦٨).

من جانب آخر فإن المقدسي، ورغم ما ذكر من معلومات عن انتشار الأسواق في مكة، فإنه لم يشير لأسواق أخرى كانت في مكة خلال القرن الثالث الهجري^(١٦٩). ويعود عدم ذكر المقدسي لهذه الأسواق - من وجهة نظرنا - إلى سببين؛ الأول، أنه لم يتطرق لها رغبة منه في الاختصار وعدم الإطالة، تمشياً مع المنهج الذي رسمه لكتابه. والثاني - وهو ما نميل إليه - أن هذه الأسواق قد اندثرت خلال القرن الرابع الهجري، عقب ما تعرضت له مكة من مشاكل سياسية عدة في النصف الأول من هذا القرن، والتي سبق وأن ألمحنا لها قبل ذلك.

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى سوق منى الذي يعقد كل موسم، وأكد أن هذا السوق من أضخم أسواق الجزيرة العربية وأبرزها^(١٧٠). كما بيّن أيضاً أن في منى "قياسير"^(١٧١) وحوانيت حسنة البناء"^(١٧٢).

(١٦٧) أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(١٦٨) أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٩.

(١٦٩) عن هذه الأسواق، انظر؛ عبدالعزيز السنيدي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط ١، الرياض ١٤٢٤هـ، ص ٤٠-٤٣.

(١٧٠) أحسن التقاسيم، ص ٩١.

(١٧١) وهي أسواق مغلقة تقفل مداخلها خلال الليل، وتحفظ فيها البضائع الثمينة. (عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص ١٨٩).

(١٧٢) أحسن التقاسيم، ص ٧٨-٧٩.

٢ - البضائع والسلع

لم يقتصر المقدسي على ذكر أسماء الأسواق، بل أتحفنا بمعلومات مختلفة عما يُسَوَّق فيها من سلع وبضائع متنوعة، فأشار إلى شهرة مكة بإنتاج السنا^(١٧٣). وذكر أن الفواكه كانت تجلب إلى أسواق مكة المكرمة من الطائف، وأن أكثر الموجود في الأسواق المكية منها^(١٧٤). وأشار إلى الجهات التي تجلب منها الملابس والثياب إلى مكة المكرمة، فقال وهو يتحدث عما يحمل من إقليم الديلم من البضائع^(١٧٥): "ومن طبرستان الأكسية التي تفضل على الفارسية وطيالسة وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق، ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم وكبار تسمى بالغرب المكية واللفائف". إضافة إلى الثياب الشطوية التي تجلب للحجاز من مدينة شطا في مصر، ولها سوق خاص بمكة المكرمة^(١٧٦). من جانب آخر بيّن المقدسي أن مصر كانت أيضاً تمد بلاد الحجاز ببعض المواد الغذائية، فقال عن مدينة المُشْتُول المصرية^(١٧٧): "المُشْتُول: كثيرة الطواحين، ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكلعك، وأحصيت في وقت من السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع، كلها حبوب ودقيق". كما قال مشيراً إلى أهمية مصر الاقتصادية لبلاد الحجاز^(١٧٨): "وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج"، وقال أيضاً^(١٧٩): "والحجاز مع أهلها عياله".

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٩٣. وقد ذكر البكري أن السنا الحرمي يصدر من مكة إلى الآفاق الأخرى. (المسالك والممالك، ج ١، ص ٣٦٢).

(١٧٤) أحسن التقاسيم، ص ٨٠.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

(١٧٦) المصدر نفسه، ص ٧٦، ٩٨.

(١٧٧) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(١٧٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومن ناحية أخرى فقد أفاد المقدسي حين نسب بعض أبواب المسجد الحرام للسلع الموجودة حولها - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - في الوصول للكثير من البضائع الاستهلاكية المتوافرة في أسواق مكة، ومنها - على سبيل المثال - التمور، والتوابل، والزيت، والبز، والأقمشة، والملابس، وأدوات العطارة، وغيرها.

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أكد أن ميناء جدة - الذي ازدهر بشتى التجارات آنذاك - كان بمثابة المصدر الرئيس لتمويل الأسواق المكية بما يرد إليه عن طريق البحر من بضائع مختلفة من عدد من الأقاليم والأمصار، حتى إنه وصف جدة بخزانة مكة^(١٨٠).

٣ - الاستثمار العقاري

أوصلنا حس المقدسي، واهتمامه التجاري إلى نشاط مارسه المكيون آنذاك عندما أشار إلى استثمارهم العقاري لمنشآتهم العمرانية بقوله^(١٨١): "ومستغلاتهم الدور". وتؤكد هذه المعلومة - بالإضافة لأهميتها وقيمتها الاقتصادية - أمراً مهماً أحدث بلا شك تغييراً اجتماعياً واقتصادياً في المجتمع المكي، ألا وهو بدء استغلال المكيين تأجير الدور - الذي حرموا منه فيما قبل - للحجاج والمعتمرين وغيرهم، وذلك منذ وقعت حادثة القرامطة، وتعاكس العباسيون عن بذل الأموال والأعطيات التي دأبوا على منحها لأهل مكة^(١٨٢).

٤ - المكاييل والموازين

وفي جانب اقتصادي آخر أشار المقدسي إلى المكاييل والموازين المنتشرة آنذاك، حيث بين المكاييل المستعملة منها في الجزيرة العربية

(١٨٠) المصدر نفسه، ص ٨١.

(١٨١) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٨٢) سليمان عبدالغني مالكي، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، ص ٧٦-٧٨.

بشكل عام، ووضح مقاديرها، قائلًا^(١٨٣): "ومكاييل هذا الإقليم الصاع والمد والمكوك، فالمد ربع الصاع، والصاع ثلث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، والمستعمل منها يزن خمسة أرتال وثلثاً". وقد ألمح المقدسي من خلال ذلك إلى أمر معروف بين الناس، وهو اختلاف مقادير هذه المكاييل بين إقليم وآخر. كما بيّن في نهاية حديثه أن الصاع المستعمل في الحجاز في وقته يزن خمسة أرتال وثلثاً، وهذا ما كان عليه فقهاء الحجاز^(١٨٤). كما ذكر المقدسي وحدة الوزن المستخدمة في مكة، فقال^(١٨٥): "وأرتالهم بمكة هو المن المعروف في جميع بلاد الإسلام غير أنهم يسمونه رطلاً"^(١٨٦).

٥ - العملات المتداولة

أما عن العملات المتداولة في الجزيرة العربية المستخدمة في المعاملات التجارية فيها، فقد أكد المقدسي أنها مختلفة بين منطقة وأخرى. وأشار إلى بعض النقود المحلية المتداولة بمكة، فقال^(١٨٧): "لأهل مكة المطوّقة وهي والعثرية^(١٨٨) ثلثا المثقال^(١٨٩) تؤخذ كدراهم اليمن عدداً، وتفصل العثرية حتى ربما كان بينهما دريهم".

(١٨٣) أحسن التقاسيم، ص ٩٣.

(١٨٤) سامح عبدالرحمن فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، ص ٢٦.

(١٨٥) المصدر السابق، ص ٩٤.

(١٨٦) قال ابن المجاور عن الرطل: "والرطل مئة وثلثون درهماً وهو ستة أواق يحسب كل أوقية أحد وعشرون درهماً وثلث، وبه يباع جميع الحوائج والعطر". (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى "تاريخ المستبصر". تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة برييل ١٩٣٦م، ص ١٢).

(١٨٧) أحسن التقاسيم، ص ٩٤.

(١٨٨) وهي نسبة لمدينة عثر. (محمد أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني. مراجعة وإشراف، حمد الجاسر. ط ٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٦٨). ولم أجد - في المصادر المتوافرة لدي - أي معلومات أخرى تفيد حول هذه العملة.

(١٨٩) يساوي المثقال (٤,٢٥) غراماً، والدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال؛ أي: كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل. وكان يطلق على الدينار لفظ المثقال. (عبدالقديم زلوم، الأموال في دولة الخلافة. ط ١، بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٢٠٥).

وعن الدراهم المتداولة في مكة قال المقدسي^(١٩٠): "والدراهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية^(١٩١). ولأهل مكة المزيقة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمي تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم". وقد بين لنا المقدسي من خلال ذلك أن المطوقة تعادل أربعة وعشرين درهماً من المزيقة، كما ألمح في معلومته هذه إلى موضوع مهم، وهو توقف التعامل بهذه الدراهم خلال موسم الحج. ويبدو أن رغبة المكيين في الحصول على بعض العملات الصعبة المتداولة في العالم الإسلامي آنذاك عن طريق الحجاج القادمين إليها، فضلاً عن الحيلولة دون تسرب عملتهم الخاصة إلى الخارج للحفاظ على قيمتها، كان سبباً في توقف التعامل التجاري بهذه العملة^(١٩٢).

٦ - المكوس والضرائب

ألقي المقدسي الضوء على المكوس والضرائب التي تفرض على البضائع القادمة إلى مكة، فقال عن مقدار ما يؤخذ عن بعض الواردات إلى ميناء جدة^(١٩٣): "والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة، وعلى سفظ الثياب الشطوي ثلاث دنانير، ومن سفظ الديبقي ديناران، وحمل الصوف ديناران". كما كانت الضرائب والمكوس تؤخذ أيضاً في ميناء السريرين

(١٩٠) أحسن التقاسيم، ص ٩٤.

(١٩١) بحثت جاهداً في عدد من المصادر والمراجع التي عُيِّت بالنقود والعملات فلم أجد لها ذكراً في ثناياها. ويقول أحمد الزليعي عنها: "ونحن لا نعرف بالضبط كيف جاءت هذه التسمية، والظاهر أنها نسبة إلى محمد بن سليمان الذي ثار بمكة سنة ٣٠١هـ، فلعلها أن تكون قد سكت في عهده، أو أن تكون قد ضربت في عهد الأمراء الموسويين الذين جاؤوا بعده، وسميت المحمدية تيمناً باسمه". (مكة وعلاقتها الخارجية، ص ١٦١).

(١٩٢) أحمد الزليعي، مكة وعلاقتها الخارجية، ص ١٦١؛ عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص ٢٧٥.

(١٩٣) أحسن التقاسيم، ص ٩٨.

التابع لإمارة مكة^(١٩٤). هذا بالإضافة لضرائب ورسوم أخرى ذكر المقدسي أنها عن كل حمل نصف دينار، تؤخذ على التجارات الداخلية عبر مرصدين وضعا ما بين مكة وجدة؛ أحدهما في القرين، والآخر في بطن مَرَّ^(١٩٥).

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أشار في حديثه عن التجارات والأموال في الجزيرة العربية أن أموالها عشرية، وليست خراجية^(١٩٦). كما نقل عن قدامة بن جعفر أن مقدار ما يؤخذ من بلاد الحرمين مئة ألف دينار سنوياً^(١٩٧). ورغم أن المقدسي لم يحدد وقت إرسال هذه الأموال لدار الخلافة، إلا أنها - فيما يبدو - كانت قبل القرن الرابع الهجري، حيث شهد هذا القرن تغيرات سياسية ومشاكل حدثت كثيراً من سلطة العباسيين على الحجاز.

الحالة الاجتماعية

أمدنا المقدسي عبر مشاهداته التي دونها خلال رحلته بمعلومات متنوعة كشفت لنا الكثير من الجوانب المختلفة - التي لم يُسلط عليها الضوء - عن الحياة الاجتماعية في مكة خلال القرن الرابع الهجري. وكان مما أشار إليه المقدسي اللباس الموجود في مكة، فقال^(١٩٨): "والرسوم في هذا الإقليم لبس الوزر والأزر بلا قميص إلا القليل". ويبدو أن المقدسي في إشارته لهذا النوع دون غيره من الألبسة المعروفة آنذاك قد اقتصر على ما هو سائد ومشهور منها؛ وهو الإزار^(١٩٩).

(١٩٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٨) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٩٩) وكان هذا النوع من الألبسة هو السائد والمشهور في مكة لدى كثير من الرجال والنساء في الحاضرة والبادية منذ عصور الإسلام الأولى. (إلهام أحمد الباطين، الحياة الاجتماعية بمكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي. ط ١، الرياض ١٤١٩هـ، ص ٣٢١-٣٢٥). وانظر هذا المرجع لمزيد من المعلومات عن الألبسة في مكة.

من جانب آخر فقد ذكر المقدسي أن أكثر الثياب المنتشرة في مكة كانت من النوع القطني^(٢٠٠). وفي إشارته لتوريد الثياب الشطوية إلى ميناء جدة^(٢٠١)، وكذلك وجود سوق لها في مكة^(٢٠٢)، دليل على سعة انتشارها آنذاك في أوساط المجتمع المكي. ونظراً لعدم تباعد درجات الحرارة كثيراً في مكة خلال فصول السنة فإن نوعية لباس المكيين - حسب قول المقدسي - ثابتة لا تتغير خلال هذه الفصول^(٢٠٣). وفي جانب آخر وضح المقدسي أيضاً أن أهل مكة اعتادوا لبس النعال^(٢٠٤).

أما معيشة الناس في مكة فرغم أن المقدسي لم يُشر إليها مباشرة، وإنما تحدث عن طبيعتها في الجزيرة العربية، عندما ذكر أن الناس فيها يتقوتون باليسير من الطعام، وأن معيشتهم تعتمد بشكل رئيس على التمر^(٢٠٥)، إلا أننا ومن خلال ما ذكر المقدسي من الأسواق المكية وتخصصاتها - والتي تحدثنا عنها قبل ذلك - نستطيع أن نقف على الكثير من المواد المستهلكة في مكة آنذاك.

من ناحية أخرى بيّن المقدسي اعتماد أهل مكة على اللحوم المجففة من ذبائح أيام النحر نوعاً من الغذاء الذي يعتمد عليه المكيون كثيراً، ويستمر معهم بعض أيام السنة^(٢٠٦). والحال نفسها تنطبق على الفواكه التي اقتصر توافرها في الأسواق المكية على فصل الصيف، في حين خلت منها هذه الأسواق - على حدّ قول المقدسي - في

(٢٠٠) أحسن التقاسيم، ص ٩٠.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٢٠٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص ٩٠.

فصل الشتاء^(٢٠٧). أما المشروبات فقد أكد المقدسي انتشار شرب السوق في مكة عندما ذكر أنه تناوله فيها^(٢٠٨).

أما الأمراض فقد أكد المقدسي - وهو يتحدث عن الجزيرة العربية - أنه لم ير مجذوما، وأشار إلى أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ المكيين من هذا المرض حيث نقل تفسير عبدالله بن عباس لقوله تعالى: "وآمنهم من خوف"^(٢٠٩)، إنه خوف الجذام^(٢١٠). وذكر أن من أهم أسباب الأمراض في مكة أكل الباذنجان، حيث أشار إلى المضار بإقليم الجزيرة العربية، فقال عن الموجود منها بمكة: "بمكة باذنجان يمرض"^(٢١١).

وأشار المقدسي إلى بعض العادات والتقاليد المنتشرة في مكة، فقال عن طريقتهم في الاحتفال بعيد الفطر^(٢١٢): "وبمكة تنصب القباب ليلة الفطر، ويزين السوق بين الصفا والمروة، ويضربون الدبادب^(٢١٣) إلى الصباح، وإذا صلوا الغداة أقبلن الولاثة مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت". كما أعجب المقدسي بتأنق المكيين

(٢٠٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. قال الزهري عن المعيشة في مكة: "فأما ما يأكلون فأكثر طعامهم القطني، والقمح عندهم قليل وكذلك الشعير، وأكثر عيشهم اللبن والتمر ولحوم الإبل والجواميس، وكذلك فواكههم الموز وقليل من العنب. وأكثر ثمارهم النخل". (كتاب الجغرافية. تحقيق، محمد حاج صادق، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ص ٣٦).

(٢٠٨) أحسن التقاسيم، ص ٣٨.

(٢٠٩) سورة قريش، آية ٤.

(٢١٠) أحسن التقاسيم، ص ٩٠. قال النسفي في تفسير ذلك: "وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسائرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام؛ فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل ذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام". (تفسير النسفي، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت)، ج ٤، ص ٣٧٨).

(٢١١) أحسن التقاسيم، ص ٩٦.

(٢١٢) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٢١٣) قال ابن منظور، الدبادب: الكثير الصياح والجلبة. والدبادب: الطبل. (لسان العرب، ج ٢، ص ١٣١٥).

وجمال زيهم، وطريقة خروجهم للحج، وشبههم في ذلك بالعراقيين، فقال^(٢١٤): "ولا يرى أحسن من زي أهل مكة في خروجهم إلى الحج في أن أحدهم ينوبه في ذلك ما ينوب العراقي".

وبيّن خلال حديثه عن مدينة الطائف أنها كانت بمثابة متنزه للطبقة الراقية من المكيين عندما يشتد الحر في فصل الصيف، فقال^(٢١٥): "إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها". كما استدل في الموضوع نفسه بتفسير عبدالله بن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢١٦)، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف^(٢١٧).

وأخيراً، ومن خلال ما أدلى به المقدسي من معلومات مختلفة ومتناثرة عن مكة وأهلها، نستطيع أن نصل إلى حقيقة ثابتة تؤكد أن التجارة بأشكالها المختلفة ونشاطاتها المتعددة قد ظفرت بنصيب وافر، واحتلت مكانة لا تدانى في مجال النشاط السكاني في مكة.

جوانب فكرية وعلمية

تحدث المقدسي عن بعض الجوانب الفكرية والعلمية في الجزيرة العربية بوجه عام وفي مكة على وجه الخصوص، فأطلعنا - رغم قلة ما ذكر في هذا الجانب - على معلومات تميز بها عن غيره من المصادر. وكان مما أشار إليه في هذا الموضوع، ضعف الحياة العلمية

(٢١٤) أحسن التقاسيم، ص ٩٥.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٢١٦) سورة قريش، آية ٢.

(٢١٧) أحسن التقاسيم، ص ٩٠. والمعروف عند كثير من المفسرين أن رحلة الشتاء المكية كانت لليمن، ورحلة الصيف كانت إلى بلاد الشام. انظر: (النسفي، تفسير النسفي، ج ٤، ص ٣٧٨؛ ابن كثير، تفسير ابن كثير، نشر، أسعد طرابزونى الحسيني، (د. ن)، (د. ت)، ج ٤، ص ٥٥٤؛ الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ج ٥، ص ٤٩٨-٤٩٩). وقد ذكر الشوكاني رواية ابن عباس التي أشار إليها المقدسي، ولكنه رجح الرواية التي تنص على أن رحلات المكيين كانت للشام واليمن. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: عبد العزيز صالح الهلابي: ما حقيقة رحلة قريش في الصيف إلى الشام؟، مجلة الدارة، ع ٤٤، ص ٢٢، ١٤١٧هـ، ص ٦٥-٩٤.

في إقليم الجزيرة العربية عندما وصفه بأنه " قليل الفقهاء والمذكرين والقراء" (٢١٨). والمقدسي في كشفه هذا يؤكد التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة آنذاك عقب المشاكل السياسية التي

عانت منها مكة - والتي ألمحنا إليها في حديث سابق - بعد أن شهد هذا الجانب تطوراً ملحوظاً قبل القرن الرابع الهجري (٢١٩). وبطبيعة الحال

يؤكد المقدسي التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة عقب المشاكل السياسية

فإن ذلك لا يعني انعدام المهتمين بالعلم خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي نفسه أشار إلى وجود بعض القراء في مكة، وبيّن أنهم ما زالوا متمسكين بقراءة ابن كثير (٢٢٠)، ومنهم من هو على قراءة أبي عمرو بن العلاء (٢٢١)، ووضح أن على هذه القراءة السواد الأعظم من سكان إقليم الجزيرة العربية (٢٢٢).

(٢١٨) أحسن التقاسيم، ص ٩٠.

(٢١٩) للاطلاع على واقع الحياة العلمية آنذاك، انظر؛ عبدالعزيز بن راشد السندي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين.

(٢٢٠) هو عبدالله بن كثير الدّاري، إمام المكيين في القراءة، وأحد السبعة القراء المعروفين. قرأ على عبدالله بن السائب المخزومي ومجاهد بن جبر وآخرين، كما درّس الحديث على بعض الصحابة والتابعين، وتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم في مكة وغيرها. توفي سنة ١٢٠هـ / ٧٢٧م، وقيل: سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م، وقيل غير ذلك. (ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف، ط٢، القاهرة: دار المعارف ١٤٠٠هـ، ص ٦٤-٦٦: الذهبي، سير أعلام النبلاء. مجموعة من المحققين، إشراف شعيب الأرنؤوط، ط٧، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٥، ص ٣١٨-٣٢٢).

(٢٢١) التميمي البصري، شيخ القراء، وعالم باللغة العربية. اختلف في اسمه، وأشهر ما قيل في ذلك زبان. برز في الحروف، وفي النحو، وتصدر للإفادة مدة. واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم. توفي سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م، وقيل ١٥٧هـ / ٧٧٣م. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٤٠٧-٤١٠).

(٢٢٢) أحسن التقاسيم، ص ٩١. الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى القراءات المستعملة في وقته في العالم الإسلامي، وذكر منها حروف أهل الحجاز، وهن أربع؛ قراءة نافع وابن كثير وشيبة وأبي جعفر. ولكنه لم يؤكد انتشار جميع هذه القراءات في مكة، واقتصر فقط على ما ذكرنا. (المصدر السابق، ص ٤٦).

ورغم تمسك المكيين بقراءة ابن كثير واعتمادها قراءة رسمية لإمام الحرم طوال الفترة التاريخية السابقة، إلا أن المقدسي أشار - وهو يؤكد ما ذكرنا - إلى بدء تخلي أئمة الحرم عن ذلك عندما قال (٢٢٣): "وسمعت بعض صدور القراء بمكة يقول: ما رأينا ولا سمعنا أن أحداً أمَّ خلف المقام بغير قراءة ابن كثير إلا في هذا الزمان".

ويبين المقدسي أن اللغة العربية هي - بطبيعة الحال - لغة أهل الجزيرة العربية بصفة عامة^(٢٢٤)، كما وضَّح أن لغة هذيل - وهي من أبرز القبائل التي تقطن مكة وما حولها - أصح اللغات في الجزيرة العربية، وذلك بقوله^(٢٢٥): "وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أن أصحها لغة هذيل ثم النجديين ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش". وكان المقدسي قد أكدَّ أن الفصاحة خاصية تميز بها أهل مكة عن غيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى^(٢٢٦).

أما عن المذهب الديني السائد في مكة فقد ذكر في حديثه عن المذاهب المنتشرة في الجزيرة العربية أن أهل مكة على المذهب السني^(٢٢٧)، وأشار إلى أن العمل فيها كان على مذهب الإمام مالك بن أنس^(٢٢٨). هذا مع وجود طائفة على المذهب الشيعي في مكة، تتمثل في فئة الخياطين^(٢٢٩). من جانب آخر فقد نقل المقدسي مقولة عمَّها محمد بن عبدالله العباسي على دعائه بيِّن من خلالها أن ميل أهل مكة والمدينة وولاءهم كان لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما^(٢٣٠).

(٢٢٣) أحسن التقاسيم، ص ٩١.

(٢٢٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٢٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٢٦) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٢٢٨) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٢٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

وتحدث المقدسي عن نوعية المصاحف المنتشرة في بلاد الحجاز، فقال^(٢٣١): "رأيت المصاحف القديمة بالشام ومصر والحجاز المنسوبة إلى عثمان، فإذا هي لا تخالف حروف ابن عامر^(٢٣٢) في شيء".

المشاعر المقدسة

أولاً: منى

عرض المقدسي صورة جغرافية وحضارية أفادت في الوصول لمعلومات متنوعة عنها إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكان مما تطرق إليه في هذا الجانب تحديد موقعها؛ فبيّن أنها داخلة ضمن حدود الحرم، وتبعد عن مكة مسافة فرسخ^(٢٣٣)، وأكد وقوعها بين جبلين يطلان عليها^(٢٣٤)، وأن طولها ميلان فقط^(٢٣٥). كما وصف الوضع الذي كانت عليه منى آنذاك، فأشار إلى أنها عبارة عن شارعين (شعبيين) فيهما عدد من الأزقة، وذكر أن فيها مسجدين؛ مسجد الخيف في الشارع الأيمن من شوارع منى، والآخر مسجد الكبش بقرب العقبة^(٢٣٦). وبين مواقع الجمرات الثلاث، وقال: إن جمرة العقبة على رأس منى نحو مكة، والثالثة عند مسجد الخيف، والوسطى بينهما^(٢٣٧). إضافة إلى ذلك فقد ذكر المقدسي وجود عدد من الأسواق في منى، وبيّن لنا طبيعتها ووصف مواد بنائها،

(٢٣١) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٢٣٢) هو عبدالله بن عامر اليحصبي. أحد علماء التابعين، وقاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. وهو من القراء السبعة المشهورين. توفي سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م. (الداني، التيسير في القراءات السبع. ط ٢، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥-٦).

(٢٣٣) أحسن التقاسيم، ص ٧٨. والفرسخ: ثلاثة أميال. وهو لفظ فارسي معرب. (ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٣٢٨١).

(٢٣٤) أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٢٣٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

فقال^(٢٣٨): "بها... قياسير وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج". فضلاً عن ذلك فقد أكد المقدسي - وهو يتحدث عن منى - توافر الكثير من الآبار والمصانع المعدة لحفظ المياه فيها^(٢٣٩).

وكانت منى آنذاك - ووفق ما رأى المقدسي - تقسم خلال موسم الحج بين أهل الأمصار الإسلامية، فقال مبيناً ذلك^(٢٤٠): "وقلّ بلد مذكور في الإسلام إلا ولأهله به مضرب". وهو يشير بذلك إلى وجود منازل معمورة وقائمة في منى، يقطن فيها حجاج كل بلد مستقلين عن غيرهم خلال أيام الحج^(٢٤١).

وحيث تحتاج هذه المنشآت الموجودة في منى للحفظ والصيانة، فقد أكد المقدسي وجود فئات من الناس تُقيم بصفة دائمة فيها، بعد أن أوكل لهم حفظها بعد انتهاء الموسم، فقال موضحاً هذا الأمر^(٢٤٢): "تعمّر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها". ويبيّن أن عدد الذين عُهد إليهم بحفظها يتراوح ما بين العشرين إلى الثلاثين رجلاً^(٢٤٣).

ثانياً: مزدلفة

رغم أن المقدسي تحدث عن مزدلفة بشكل مختصر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عنها، فحدد لنا أنها تبعد عن منى فرسخاً^(٢٤٤). كما ذكر ما فيها من منشآت لخدمة الحجاج، ومنها مصلى أشار إلى

(٢٣٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤١) قال الاصطخري وهو يتحدث عن منى: "وبها أبنية كثيرة لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (مسالك الممالك، ص ١٦). وأشار إلى ذلك أيضاً ابن حوقل بقوله: "وبمنى أبنية كثيرة كالقصور، لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (صورة الأرض، ص ٣٦).

(٢٤٢) أحسن التقاسيم، ص ٧٨.

(٢٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٩.

وجود منارة فيه فقط^(٢٤٥)، دون أن يبيّن لنا نوعية عمارته ووصفها أو أطواله ومسافات^(٢٤٦). إضافة إلى ذلك فقد أشار المقدسي إلى وجود سقاية للماء في مزدلفة^(٢٤٧)، فضلاً عن عدد من البرك القريبة من جبل ثبير^(٢٤٨).

ولم يفت المقدسي - وهو يتحدث عن مزدلفة - أن يذكر بعض الأسماء الأخرى التي كانت تطلق عليها، ومنها جمع والمشعر الحرام^(٢٤٩). وكان مما أشار إليه المقدسي بطن مُحَسَّر، فبيّن أنه على حدود المزدلفة فيما بينها وبين منى، دون أن يتعرض لبعض الجوانب الشرعية المتعلقة بهذا المكان، كعادته عندما يجد فرصة للحديث عن جوانب فقهية أو تشريعية، فقال^(٢٥٠): "بطن مُحَسَّر: وادٍ بين منى والمزدلفة، وهو تخم^(٢٥١) المزدلفة".

ثالثاً: عرفة

توسع المقدسي قليلاً في حديثه عن عرفة مقارنة بمعلوماته عن المشاعر المقدسة الأخرى، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات جديدة، حيث قال في بداية حديثه عنها^(٢٥٢): "عرفة: قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ^(٢٥٣)، وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة"،

(٢٤٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٦) لمعرفة بعض المعلومات عن مسجد المزدلفة، انظر: الأزرقى، أخبار مكة، ج٢، ص١٨٧؛ الحربي، المناسك، ص٥٠٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

(٢٤٧) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٤٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥١) قال ابن منظور: التخم، منتهى كل قرية أو أرض. وتخومها، حدودها. والتخوم أيضاً مفصل ما بين الكورتين والقريتين. (لسان العرب، ج١، ص٤٢٢-٤٢٣).

(٢٥٢) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٥٣) كما يتضح فإن المقدسي لا يقصد حائط بني عامر؛ لأن هذا المكان على حد عرفات من ناحية الشرق.

وبهذا فإن المقدسي قد أفادنا بوجود الاستقرار السكاني في عرفة عندما نعتها بأنها قرية، فيها بعض الدور السكنية، وتنتشر فيها أنواع من المزروعات، وهذا كله - كما هو معروف - من علامات التحضر. ويبدو أن هذا الاستقرار الذي ألمح إليه المقدسي، والدور التي ذكرها في عرفة كانت قريبة النشأة من مجيء المقدسي إلى مكة، ويؤيد ذلك ما ذكر ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) حين أكد عدم وجود ساكن أو حتى بناء فيها^(٢٥٤).

ثم تحدث المقدسي عن الموقف وجبل الرحمة، فقال^(٢٥٥): "والموقف منها على صيحة عند جبل متلاط، وثم سقايات وحياض وقناة تخر وعلم قد بُني يقف خلفه الإمام للدعاء^(٢٥٦)، والناس حوله على جبال بقربه لاطية". وقد حدد من خلال ذلك موقع الموقف، وبيّن أن الحجاج يقفون حول هذا الجبل، الذي وضع في أعلاه علم، يقف خلفه الإمام حينذاك للدعاء في يوم عرفة. كما أكد المقدسي وجود بعض المصادر المائية في عرفة آنذاك، وهي مجموعة من السقايات والحياض المعدة لحفظ المياه للحجاج، فضلاً عن قناة تجري فيها المياه لخدمتهم، وكأنه يشير بذلك إلى استمرار عمل القناة التي وضعتها زبيدة في أواخر القرن الثاني الهجري في عرفة.

كما تناول المقدسي بالحديث مسجد عرفة، والذي أطلق عليه لفظ مصلى، فقال عن موقعه^(٢٥٧): "والمصلى على حافة وادي عُرنة

(٢٥٤) العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٨٧.

(٢٥٥) أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

(٢٥٦) قال ناصر خسرو بعد أن ذكر صلاة الإمام في مسجد نمرة وصفتها: "ثم يركب الإمام جملاً، ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات؛ حيث يرقى جبلاً صغيراً، ويسمى ذلك الجبل جبل الرحمة، ويقف الإمام على الجبل ممتطياً ناقته متجهاً إلى القبلة في الجهة الغربية، ويظل يدعو الله، ويسأله الرحمة والغفران إلى غروب الشمس". (سفر نامه، ص ١٥٩).

(٢٥٧) أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

على تخوم عرفة". كما أشار إلى وجود منبر في مسجد عرفة بُني من مادة الآجر، وكذلك حوض لحفظ الماء بالقرب من المسجد وصفه بالكبر، فقال^(٢٥٨): "وفي المصلى منبر من الآجر، وخلفه حوض كبير". ولم يصف لنا هذا المسجد وما يحتويه من مبان ومنشآت. ويبدو من خلال إهمال المقدسي لهذا الجانب أن المسجد كان آنذاك قد تعرض للخراب وتهدمت مبانيه، بعد أن كانت قائمة في أواخر القرن الثالث الهجري^(٢٥٩). وهذا ما أكدته بالفعل ناصر خسرو عندما ذكر خراب هذا المسجد خلال حجته التي أداها سنة ٤٤٢هـ^(٢٦٠).

وأشار المقدسي وهو يتحدث عن عرفة إلى وجود أعلام وضعت لمعرفة حدودها، صبغت باللون الأبيض^(٢٦١). كما أكد أن عرفة خارج حدود الحرم عندما قال وهو يتحدث عن المسجد^(٢٦٢): "وقبله بميلين المأزمين^(٢٦٣) هي حد الحرم". وبهذا فقد وضّح لنا المقدسي أيضاً أن عرفة تبعد عن حدود الحرم بميلين تقريباً.

(٢٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٩) قال عنه الحربي موضحاً ذلك: "وذرع طول مسجد عرفات من مقدمه إلى مؤخره مئة وثلاثة وستون ذراعاً، ومن جانبه الأيمن إلى جانبه الأيسر مئتان وثلاثة عشر ذراعاً، وله من الأبواب تسعة، منها في القبلة باب عليه طاق، وفي الجانب الأيمن أربعة وفي الأيسر أربعة. ومن مؤخر المسجد مكان مربع طولُه في السماء سبعة أذرع، وسعة أعلاه سبع أذرع في ست أذرع، وربما أذن عليه". المناسك، ص ٥٠٩-٥١٠. كما أسهب الأزرق في وصف مسجد عرفة وذكر طريقة بنائه وأبوابه وكل ما يتعلق به. انظر (أخبار مكة، ج ٢، ص ١٨٨-١٨٩). وقد أتينا بوصف الحربي هنا؛ لأنه الأقرب إلى عصر المقدسي.

(٢٦٠) سفرنامه، ص ١٥٩.

(٢٦١) أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

(٢٦٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٣) قال ياقوت: الأزم الضيق، ومنه سمي هذا الموضع، وهو موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرنة. (معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٠).

حدود الحرم المكي

ذكر المقدسي أن الحرم المكي قد أُحيط بأعلام طليت باللون الأبيض توضح حدَّ الحرم من الحل، فقال^(٢٦٤): "ويحُدُّ بالحرم أعلام بيض". كما تناول بالحديث أبعاد أرض الحرم عن الكعبة، متخذاً - كغيره ممن اهتم بهذا الجانب آنذاك - من مداخل مكة معالم واتجاهات لتحديد هذه المسافات، فقال مبيناً ذلك^(٢٦٥): "وهو من طريق الغرب التعيم ثلاثة أميال، ومن طريق العراق تسعة أميال، ومن طريق اليمن سبعة أميال، ومن طريق الطائف أحد عشر ميلاً، ومن طريق الجادة عشرة أميال". ولم يبيِّن لنا المقدسي ما إذا كان أخذ هذه القياسات - التي تتشابه إلى حدٍّ كبير مع بعض ما جاء في عدد من المصادر^(٢٦٦) - بنفسه، أم أنه - وهذا ما أميل إليه - استقى معلوماته ممن سبقوه في هذا المجال، كعادته في تحديد المسافات والأطوال، لا سيما في الكعبة والمسجد الحرام - كما رأينا - والتي اعتمد فيها على ابن خرداذبة، مثلاً.

معلومات أخرى

أثَّرت قدسية المكان وملاءمة الزمان على المقدسي؛ فتناول في حديثه عن مكة جوانب تشريعية مختلفة تتعلق بالمناسك، وأخرى ذات صبغة دينية أيضاً ترتبط ببعض العبادات السائدة في مكة. وكان مما

(٢٦٤) أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

(٢٦٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٦) أشارت مجموعة من المصادر إلى حدود الحرم، وتفاوتت كثيراً في هذا الجانب، انظر على سبيل المثال: الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ١٣١-١٣٢؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢١-٢٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٣٢؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص ١٧-١٨؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج ١، ص ٤٠٣. وللإطلاع على المزيد من المعلومات عن حدود الحرم المكي وأعلامه وتاريخها وما قيل حولها، انظر: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به: دراسة تاريخية ميدانية، مكة المكرمة، (د. ت.).

تحدث عنه المقدسي تحديد مواقيت الحج للقادمين من الآفاق الإسلامية، فأورد حديثاً رُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ حول مواقيت أهل الأمصار. كما بيّن في هذا الموضوع حكم من جاوز المواقيت دون إحرام^(٢٦٧).

من جانب آخر ذكر المقدسي أن أهل مكة يحرمون منها^(٢٦٨). كما أشار إلى موضعين خارج حدود الحرم يخرج إليهما الناس من مكة للإحرام، وهما الجعرانة والتتعيم، فأتحفنا ببعض المعلومات عنهما، حيث يقول عن الجعرانة^(٢٦٩): "الجعرانة: على مرحلة من مكة يخرج الناس إليها في الإحرام بالعمرة". كما بيّن أن التتعيم موضع على الطريق المؤدي إلى المدينة، وذكر أن فيه مجموعة من المساجد، بالإضافة للمسجد المعروف فيه، وهو مسجد عائشة، كما أكد وجود بعض السقايات في هذا المكان، وأشار إلى كثرة إحرام المكيين منه للعمرة^(٢٧٠).

وأثبت المقدسي معرفته التامة بأحكام المناسك حينما ألقى الضوء على فرائض الحج وواجباته وسننه، فقال مختصراً هذا الموضوع، ومبيناً معرفته التامة به وإطلاعه على اختلافات العلماء في هذا الجانب^(٢٧١): "فهذه مشاهد المناسك وجميع ما يؤدي فيها ثلاث فرائض، وست واجبات، وخمس سنن. أما الفرائض: فالإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف للزيارة. والواجبات: الإحرام من الوقت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات بعد المغرب^(٢٧٢).

(٢٦٧) أحسن التقاسيم، ص ٨٠.

(٢٦٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٧٠) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٢٧١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٢٧٢) اقتصر المقدسي - كما يلاحظ - على ذكر ثلاث فقط من الواجبات رغم أنه

أشار في البداية إلى أن عددها ست.

والسنن: طواف القدوم، والرمل في ثلاثة أشواط منه، والعدو في السعي بين العلمين، والإفاضة من المزدلفة قبل الطلوع، والإقامة بمنى أيام منى. وقال بعضهم: السعي فرض، وقال بعض: طواف القدوم واجب، وطواف الصدر سنة".

وقد أشار المقدسي إلى كيفية أداء المكيين لصلاة التراويح في المسجد الحرام، فقال^(٢٧٣): "ويرتبون خمسة أئمة في التراويح يصلون ترويجة، ويطوفون أسبوعاً، والمؤذنون يكبرون ويهللون ثم يضرب الفرقاعيات^(٢٧٤) كما تضرب عند الصلوات، فيتقدم الإمام الآخر، يصلون العشاء إذا مضى من الليل الثلث، ويفرغون إذا بقي الثلث، ثم ينادى بالسحور على أبي قبيس". والمقدسي بقوله هذا يؤكد لنا استمرار العمل بهذه الطريقة في مكة - والتي استحدثت خلال القرن الأول الهجري وبأمر من واليها آنذاك خالد بن عبدالله القسري^(٢٧٥) - خلال

(٢٧٣) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٢٧٤) فرقع الشيء: سُمع له دوي. والفرقعة: الصوت بين شئئين متضاربين. (مجموعة من العلماء، المعجم الوسيط. ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، ج ٢، ص ٦٨٦). وقال ابن جبير في تعريفها: "عود مخروط قد رُبط في رأسه مرس من الأديم المفتول طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفضاً؛ فتأتي بصوت عالٍ يسمع من داخل الحرم وخارجه للإيدان بوصول الخطيب، ولا يزال في نفضها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة". (الرحلة، ص ٧٢-٧٣). وقد أنكر عبدالرحمن بن الجوزي ذلك عندما حج ورأى ذلك سنة ٥٥٣هـ، فقال: "ومن عجائب ما رأيت أنهم كانوا يمشون بين يدي الخطيب يوم الجمعة بمقارع تضرب على غفلة تزعج المكان والناس؛ فأنكرت هذا، فقليل: هذا شعارهم. فقلت: بئس الشعار؛ هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأصوات، والأذان يكفي". (ابن فهد، إتحاف الوري، ج ٢، ص ٥٢٠).

(٢٧٥) يقول الأزرقى موضحاً ذلك: "قلما ولي خالد بن عبدالله القسري مكة لعبدالمملك بن مروان، وحضر شهر رمضان، أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة، وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلى المسجد فأدارهم حول الكعبة فقليل له: تقطع الطواف لغير المكتوبة قال: فأنا أمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعاً، فأمرهم ففصلوا بين كل ترويحتين بطواف سبع، فقليل له: فإنه يكون في مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره، فيتهيئ للصلاة، فأمر عبید الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون: الحمد لله =

النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. كما وضع المقدسي من خلال حديثه المذكور آنفاً عدد الأئمة الذين يؤدون صلاة التراويح في المسجد الحرام آنذاك، وكيف يقضي الناس عبادتهم في ليالي رمضان، وطريقة التبيه لقدم الإمام وإقامة الصلوات، فضلاً عن النداء للسحور.

من جانب آخر أشاد المقدسي بقضاء شهر رمضان في مكة، وعدّ ذلك من الأشياء المستحسنة، فقال^(٢٧٦): "واعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن: رمضان في مكة...".

وفي حديثه عن منى أورد المقدسي الخلافات بين بعض العلماء في مسألة جواز إقامة الجمعة فيها من عدمه، وهل هي ومكة مصر واحد أم لا؟ وقد زدنا خلال تناول هذه القضية ببعض آراء العلماء في هذا الموضوع، مع ذكر شيء من أدلتهم واحتجاجاتهم^(٢٧٧).

وعندما تكلم عن وادي عُرنه - الواقع على تخوم عرفة - ذكر حكماً فقهياً، بيّن من خلاله أنه لا يجوز الوقوف بهذا الوادي، ومن خرج إليه قبل غياب الشمس وجب عليه دم^(٢٧٨).

وبيّن المقدسي أن ترديد الصوت في الحلق، وتكراره كانت طريقة الأذان المتبعة بمكة، فقال^(٢٧٩): "والأذان بتهامه ومكة يرجع^(٢٨٠)".

= والله أكبر، فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتى يتهيئ الناس ممن في الحجر ومن في جوانب المسجد من وصل وغيره؛ فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير، ويصلي، ويخفف المصلي صلاته، ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع، ويقوم مسمع فينادي: الصلاة رحمكم الله". (أخبار مكة، ج ٢، ص ٦٦-٦٧).

(٢٧٦) أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٢٧٧) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٢٧٨) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٢٧٩) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢٨٠) قال ابن منظور: رجّع الرجل وترجّع: ردد صوته في قراءة، أو أذان، أو غناء، أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به. والترجيع في الأذان: أن يكرر قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وترجيع الصوت: ترديده في الحلق كقراءة أصحاب الألحان. والترجيع ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. (لسان العرب، ج ٢، ص ١٥٩١).

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى بعض الأماكن في مكة وأسمائها بالمشاهد^(٢٨١)، ويبدو أنه يقصد بذلك المواطن التي ذكرت المصادر استحباب الصلاة والدعاء فيها .

وقد اكتفى المقدسي في هذا الجانب بذكر عدد محدود مما أشارت إليه المصادر، وفي الوقت نفسه أضاف مواقع أخرى لا نجدها في المصنفات المتاحة التي تحدثت عن ذلك، فقال^(٢٨٢): "المشاهد بمكة مولد النبي ﷺ في المحاملين، ودار الأربعين^(٢٨٣) بالبزازين، ودار خديجة خلف العطارين، وغار ثور على فرسخ أسفل مكة، وجرأء من نحو منى، وغار آخر خلف أبي قبيس".

كما ذكر المقدسي أماكن قبور بعض من دفن في مكة، فقال^(٢٨٤): "وبالحرم قبر ميمونة^(٢٨٥) على طريق جدة، وفي الثنية^(٢٨٦) قبر

(٢٨١) قال ابن منظور، المشهد: المجمع من الناس، والمشهد محضر الناس. ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها. (لسان العرب، ج٤، ص٢٢٤٩-٢٣٥٠).

(٢٨٢) أحسن التقاسيم، ص٩٦. وعن الأماكن التي تستحب فيها الصلاة والدعاء في مكة، انظر: الأزرقى، أخبار مكة، ج٢، ص١٩٩-٢٠٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩١-٩٣؛ ابن الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ط١، الرياض: دار الراية ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج٢، ص٨٣-٨٦؛ محب الدين الطبري، القرى لقاصد أم القرى. تحقيق: مصطفى السقا. ط٢، القاهرة: دار الفكر ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م، ص٦٦٤-٦٦٥.

(٢٨٣) ويقصد بذلك - كما يتضح - دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان المصطفى ﷺ يجتمع فيها في بداية الدعوة بأصحابه رضوان الله عليهم، ولم يخرجوا منها لإظهار الدعوة حتى وصل عددهم إلى أربعين رجلاً. (ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة. بيروت: دار الفكر، (د.ت)، ج١، ص٧٤). ولم أجد هذا الاسم لها عند الأزرقى أو الفاكهي أو في الكتب الأخرى التي ذكرت الأماكن التي يستحب فيها الدعاء بمكة.

(٢٨٤) أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٢٨٥) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ. توفيت بسرف سنة ثلاث وستين، وقيل: ست وستين للهجرة، وقيل غير ذلك. (الفاصي، العقد الثمين، ج٨، ص٣١٩-٣٢٠).

(٢٨٦) يقصد ثنية كداء، وفيها مقبرة المعلاة.

الفضیل (٢٨٧) وسفیان بن عیینة (٢٨٨) ووهیب بن الورد (٢٨٩).

الجدير بالذكر أن المقدسي قد ختم كلامه عن إقليم الجزيرة العربية بالطرق ومسافاتها. سواء كانت الطرق الداخلية في هذا الإقليم، أو ما تربطه بالعالم الخارجي. وفي خضم ذلك تحدث عن الطرق التي تربط مكة بالمدن والقرى التابعة لها، كما تكلم أيضاً عما يصل إليها من طرق خارج حدودها الإدارية، ودعم ذلك بالمسافات بين كل موقع وآخر (٢٩٠).

(٢٨٧) هو الفضيل بن عياض، أحد الأئمة الزهاد، والعلماء المبرزين، ولد بسمَرْقند، ونشأ بأبيورد ثم الكوفة، ورحل في طلب العلم، فروى عن عدد من العلماء المبرزين، ثم استقر في مكة مجاوراً حتى مات. ويُعد من المحدثين الثقات، والفقهاء المجتهدين. توفي سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م. (ابن حبان: الثقات، ١، الهند، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ج٧، ص ٣١٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٢١-٤٤٢).

(٢٨٨) هو سفیان بن عیینة الهلالي، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، وشيخ الإسلام في عصره، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م، ثم انتقل إلى مكة، فاستقر فيها. وتلمذ في مكة على الزهري وعمرو بن دينار وغيرهما، كما رحل في طلب العلم إلى بعض الأمصار. وقد عني بتتبع العلوم الشرعية دراسة وتصنيفاً، وهو ثقة في روايته، وشهر أيضاً بالزهد والورع والتقوى، توفي بمكة سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م. (ابن سعد: الطبقات الكبرى. بيروت: دار صادر، (د. ت)، ج ٥، ص ٤٩٧-٤٩٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٥٤ - ٤٧٥).

(٢٨٩) من عباد المكيين وزهادهم. أدرك جماعة من التابعين، وروى عن عطاء بن أبي رباح وأبان بن أبي عياش وغيرهما. توفي سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م. (الفاصي، العقد الثمين، ج ٧، ص ٤١٧-٤٢٢).

(٢٩٠) أحسن التقاسيم، ص ٩٩-١٠٢.

الخاتمة

إن التعايش مع المقدسي في رحلته إلى مكة قد كشف لنا الكثير من الحقائق وأفضى بنا إلى عدد من النتائج، سواء من حيث أصالة معلومات الكتاب وقيمتها العلمية والتاريخية، أو من حيث منهجه ومصادر معلوماته، ومن أبرز ما توصلنا إليه الآتي:

- الاهتمام إلى مكانة المقدسي وعلو كعبه بين الجغرافيين والرحالة، وقيمة كتاب أحسن التقاسيم العلمية وأهميته بين مصنفيهم.
- أن كتابات المقدسي بما حفلت به من المعلومات قد يسرت الوصول للكثير من الحقائق التاريخية، والاطلاع على العديد من الجوانب الحضارية، التي أتاحت تغطية مساحات من التاريخ المكي الذي غفل عنه المؤرخون، ولا سيما في القرن الرابع الهجري.
- بيّن المقدسي من خلال كتاباته - وبطريقة غير مباشرة - المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وتوسع سلطتها الإدارية، فضلاً عن التطور الحضاري الذي شهدته أوجه النشاط المختلفة فيها آنذاك.
- أوضح المقدسي مدى التصاق أهل مكة وحكامها وارتباطهم سياسياً وحضارياً في مصر وحكومتها آنذاك. وبيّن أن الجانب الاقتصادي كان الدافع الأول، والمحرك الأساس لهذا الارتباط الوشيق.
- أفاد المقدسي عبر إشارات وإيماءات مختصرة بوجود نفوذ محدود في مكة للدولة الزيادية الحاكمة في اليمن آنذاك، وكذلك ملك غرجستان المعروف بالشار.
- كما أطلعنا المقدسي أيضاً على الكثير من المعلومات التي انفرد بها عن غيره، ومنها على سبيل المثال؛ وجود كسوة على مقام إبراهيم، ومخالفة رسم موطن القدمين فيه، ونقش العمال الذين عملوا في توسعة الخليفة المنصور أسماءهم في جنبات المسجد، وتأجير

المكيين الدور للحجاج والمعتمرين. إضافة لبعض المعلومات عن منى، مثل: تقسيمها أيام الحج بين أهل الأمصار، ووجود حراس يقيمون فيها أيام السنة لحفظها، ووجود شوارع وبنيات وحوانيت فيها. وكذلك وجود مساكن في عرفة، وغير ذلك من المعلومات الجديدة التي يجدها المتصفح لهذه الدراسة.

- أوقفنا المقدسي على التحرك التجاري في مكة، وأوجه هذا النشاط ومجالاته، إضافة لمدى تفاعل المكيين معه.

- أتحننا بمعرفة عدد من العملات والنقود المتداولة في مكة، فضلاً عن المكايل والموازين المستعملة في التعاملات التجارية فيها.

- زدنا المقدسي بالكثير من المعلومات الحضارية؛ سواء منها ما يتعلق بالنواحي العمرانية في الكعبة والمسجد الحرام، أو في مكة والمشاعر المقدسة. وكذلك ما يرتبط بالحياة الاجتماعية، مثل: معيشة السكان أو بعض العادات والتقاليد أو الأمراض وغيرها. إضافة لفوائد متنوعة عن الحياة الفكرية والعلمية.

- لم يتطرق المقدسي لأي معلومات سياسية، سواء ما يتعلق بالأشراف - الذين لم يشر لهم إطلاقاً - أو العبيديين أو غيرهم. ومع ذلك فقد استطعنا استنتاج بعض الأمور السياسية من خلال طرقة لبعض الموضوعات الحضارية.

- اتضح اعتماد المقدسي في ما ذكر من قياسات في الكعبة أو المسجد الحرام أو غيرها كلياً على كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، فنقل ما فيه بحذافيره دون تمحيص أو تأكيد رغم أنه قدم إلى مكة أكثر من مرة، كما جاور فيها أيضاً كما أشرنا.

- لم يسهب المقدسي في وصف الكثير من المواقع في مكة، ولا سيما في الكعبة والمسجد الحرام كما فعل غيره ممن سبقه أو أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين، والرحالة توسعوا في الحديث عن

وصف الكعبة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، وربما كان سبب ذلك الالتزام بالمنهج الذي رسمه من حيث عدم تكرار ما ذكر غيره. ورغم ذلك فقد جاءت معلومات المقدسي رغم اختصارها مملوءة بالفوائد.

- أن المقدسي لم يستفد في بعض الجوانب التي طرقها من كتابات المؤرخين المكيين الذين سبقوه كالأزرقي والفاكهي، رغم أهميتها في بعض الجوانب.